ثقافات الشعوب

@ketab_n
Follow Me
24.11.2017

@ketab_n

كوخ نسر الحرب
حكايات الأسباب الهندية

جمع: فرانك ب. لندرمان
ترجمة: أحمد لطفي

كوخ نسر الحرب
حكايات الأسباب الهندية

جمع:
فرانك ب. لندرمان

ترجمة:
أحمد لطفي

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كوخ نسر الحرب

حكايات الأسباب الهندية

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

كوخ نسر الحرب: حكايات الأسباب الهندية

© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

E99. S54. L5212 2009
Linderman, Frank Bird, 1869-1938.
[Indian Why Stories]

كوخ نسر الحرب: حكايات الأسباب الهندية/ جمع فرانك بيرد ليندرمان؛ ترجمة أحمد لطفي. -
ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
164ص؛ 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
ردمك: 978-9948-01-326-6
ترجمة كتاب: Indian Why Stories
1 - القصص الشعبية الأمريكية 2 - الحكايات الأمريكية. أ- لطفي، أحمد. ب- العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبو هواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله التتان

كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+

www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ،
فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء	7
تقديم	11
تمهيد	15
لماذا ظهرُ السنجاب البري مخطّط	17
كيف حصل البط على ريشه الجميل	27
لماذا يرتدي الطائر الرفراف خوذة الحرب دائماً	32
لماذا يبدو منقار الكروان طويلاً ومعقوفاً	38
الشيخ يعلق على العالم	44
لماذا قبيلة «الأقدام السود» لا تقتل الفئران	55
كيف أصبح جلد ثعلب الماء دواءً عظيماً	61
الشيخ يسرق رداء الشمس	72
ضمير الشيخ	80
خيانة الشيخ	88
لماذا تبدو أجنحة «صقر الليل» جميلة	95
لماذا صار الأسد الجبلي طويلاً ونحيفاً	101
سروال النار	111
القمر والثعبان العظيم	116
لماذا ليس لدى الغزال حويصلة صفراء	120
لماذا يضرب الهندي التوت ليسقطه عن الأشجار	125
الثعلب والشيخ	130

Twitter: @ketab_n

لماذا تحمل شجرة البتولا تلك الشقوق الصغيرة في لحائها 139
أخطاء الشيخ 144
كيف عثر الرجل على زوجة 147
منامات 153
طيف الذكريات 161

Twitter: @ketab_n

الإهداء:

أهدي هذا الكتاب الصغير إلى صديقي

تشارلز إم راسل

فنان الكاوبوي جورج بيرد جرينيل صديق الهندي

ولجميع من عرفوا مونتانا القديمة وأحبوها

لأني أعتبرهم جميعاً أقرباء

هؤلاء الذين أضاءوا النيران وسط الطبيعة

التي لا تضع الماكياج على بشرتها

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذه السلسلة

تأتي هذه السلسلة التي تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العالم العربي. تلك القيم والأهداف التي تسعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها - مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة - تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في أقاصي الغرب، أو

Twitter: @ketab_n

شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه – وإن بلغة أخرى – جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

Twitter: @ketab_n

تقديم

الشمال الغربي العظيم– تلك التخوم الرائعة التي رعت أكثر الأرواح برّية– سرعان ما أصبح بلداً قائماً، وقبل أن يسطع نور الحضارة، ساق «هندي الدثار»[1] الجاموس وعبر الحد الفاصل الذي أنشأه الزمن بين الرواد والغوغاء. ومع عبوره، فقدنا الكثير من الفلكلور البدائي الغني بشخصياته الخيالية وعلاقته بحياة أغلب شخصيات الحرب. وهناك فرق كبير بين فلكلور ما يُسمى «العالم القديم» وفلكلور أمريكا. فالقصص الشعبي الذي رواه أجدادنا الأولون[2]، وتناقلته شفهياً أجيال لا عد لها ولا حصر، يحمل تشويهاً وتحويراً في الخصوصيات المادية له. أما الهندي[3] فبدا مولعاً بالطبيعة، فخوراً بالتقاليد لدرجة أنه لا ينسى تعاليم أجداده ولا يحرّفها. ولأن هذه الحكايات تحمل أمارات الطفولة في بساطتها، وتبدأ مع بداية الخلق ذاته وتبحث في تساؤلات

(1) Blanket-Indian: تعبير احتقاري يراد به التعبير عن سكان أمريكا الأصليين الذين رفضوا أن يتركوا أرضهم أو يجري ابتلاعهم (م).
(2) أي البيض، إشارة إلى الغرب أو أوروبا أو «العالم القديم» كما يصفه الكاتب (م).
(3) حيثما تذكر كلمة الهندي فالمقصود بطبيعة الحال الهنود الحمر.

Twitter: @ketab_n

عن أسباب تقلبات الطبيعة وغرائبها، فإنها تدهشني بقيمتها التي تجعلها جديرة بالحفظ.

ظل الهندي على الدوام محباً للطبيعة، مراقبا حثيثاً لأمزجتها وأحوالها المتغيرة المتقلبة. عادات الحيوان والطير، أصوات الريح والماء، ومضات الظل، شعاع القمر الغامض، كلها استولت على وجدانه وشغفه. ويوماً بعد يوم، جمع الهندي داخل نفسه أسباباً من نسج خياله لمظاهر عدة يراها في «الأم الكبيرة»[1] وأطفالها الكثيرين. ولأن الهندي شاعر بالفطرة، كان ينسج غريب القصص ليمرّر من خلالها تفسيراته إلى الآخرين. فانتقلت هذه القصص من الآباء إلى الأبناء، تنوعت قليلا واختلفت يسيراً على شفاه أجيال لا تُحصى، حتى جاء الرجل الأبيض وذبح الجاموس، واستولى على البلد المفتوح، وترك الرجل الأحمر في حال لا يختلف عن المتسولين كثيراً، لكن سارد القصص القبلي قد غاب، وأصبحت تجد هنا وهناك رجلاً يحب أساطير الأيام الخوالي.

(1) الأرضى (م).

Twitter: @ketab_n

الشيخ، أو «النابا» كما تسميه قبائل «الأقدام السود»، هو الشخصية الأغرب في الفلكلور الهندي. يظهر أحياناً كإله أو خالق، وأحياناً يبدو شخصاً تافهاً أو مهرجاً أو لصاً. لكن في مخيلة الهندي، «النابا» ليس إلهاً، ولكنه يشغل موقعاً التابع إلى حد ما في حكاية الخلق. ويمتلك صفات كثيرة، صوّرته أحياناً على أنه المانيتو[1] ذاته. وفي ذلك كله، يسكن صدى فضولي لتعاليم الآريين القدامى، الذين آمنوا بأن الأرض ليست صنيعاً مباشرا للآلهة، وإنما خلقها أحد أعضاء هرم الآلهة التابعين. ويكن الهندي أعظم هيبة لـ «الإله الأعظم» الذي عرفه قراء الأدب الهندي بأنه المانيتو. ولم ترو عنه أي قصص تافهة، ولا يذكره أي هندي بغير إجلال وإكبار. إلا أن الأمر مختلف تماماً بالنسبة لـ «النابا» الذي لا يبدو أهلاً لأي هيبة، فهو مزيج غريب من الإنسان غير المعصوم عن الخطأ والإله الأرضي صاحب القوة والبأس. فقد دنّس القدسية بالسُخف. وهناك الكثير من القصص التي تحمل ذكر النابا لا تستحق السرد على الإطلاق.

(1) الساحر، وتوصيف المانيتو في ثقافات الهنود الحمر وتراثهم يختلف عن المشعوذ، بل هو في أغلب الأحيان الشخص الذي له صلة ما بالخوارق والعالم العلوي والقادر على اجتراح المعجزات أحياناً في ما خص علاقته بالطبيعة. أما هنا فهو أكثر من ذلك، إنه القوة السحرية الكبرى المنشئة للكون (م).

Twitter: @ketab_n

وسوف أطلعكم على ما أعرفه من هذه الأساطير، التي سأجعلها تحاكي بأقرب صورة ممكنة أقرب نمط السرد الهندي، وسأستخدم فقط القصص التي حكاها لي الأجداد في قبائل «الأقدام السود»[1] و«التشيبوا»[2] و«كري»[3].

(1) Blackfeet: قبيلة هندية تسكن شمال أمريكا (م).
(2) Chippewa: أو الأوبيجوا، أكبر قبيلة من سكان أمريكا الأصليين في المكسيك، وهم القبيلة الثالثة ضمن الولايات المتحدة الأمريكية.
(3) Cree: قبيلة هندية من شمال أمريكا، توجد خاصة في وسط كندا (م).

Twitter: @ketab_n

تمهيد

حل المساء وتساقطت أوراق الشجر، إذ كان «النابا» قد انتهى من رسمها لكي ترقص مع رياح الشمال. وفوق سلسلة الجبال الصخرية، سطع القمر الكبير في سماء خلت من نجومها، وفي التخوم التي خيمت عليها الظلال، انعكست قمة كل تل على صفحة السهل في صورة أجسام عملاقة. تمدد النور ببطء وتراجعت الظلال تدريجياً حتى أطل قمر أكتوبر على المخيم الهندي الكبير المكوّن من مئة كوخ، اتخذ كل منها تصميماً مثالياً يسطع بأطراف فضية، ويبدو لون كل منها أبيض شاحباً في ليل الخريف الساكن.

في اتجاه العودة من المعسكر تحت الظلال دائبة الحركة، تسلل ذئب إلى تل يطل على المشهد، حيث توقف عن المشاهدة والاستماع، وانعكس ظل جسده على السماء. أخذ كلب ينبح من آن لآخر، وبلغ قرع الطبول الغريب «توم توم» المصاحب لصوت مغنٍ في القرية الهندية مسامع الذئب، لكن الذئب لم

Twitter: @ketab_n

يشعر بالقلق، ولم يتراجع إلا حين اقترب قطيع كبير من الأفراس الصغيرة تحت أعين راعي الأغنام.

وبالقرب من وسط المخيّم، قام كوخ العرّاف[1] «نسر الحرب» الكبير بطلائه الجميل، وداخل الكوخ جلس الرجل الطيب مع أحفاده يروي لهم قصصاً عن الخليقة والأفعال الغريبة للـ «نابا». وبما أنني صديق الشيخ الحكواتي، فقد دخلت ولم يمنعني أحد، واستمعت مع الأطفال حتى تأخر الوقت، وجعلت النار الآخذة في الخفوت الظلال تتراقص فوق جدار الكوخ.

(1) Medicine-Man: هو العرّاف أو المشعوذ وهو قد يكون في آن معاً الحكيم والكاهن وشيخ القبيلة، هنا هو أيضاً راوي الحكايات (م).

Twitter: @ketab_n

لماذا ظهرُ السنجاب البري مخطّط

كم كان كوخاً رائعاً، وكم بدا «نسر الحرب» عظيماً وهو يتكئ على ظهره في ضوء النيران! وقد تدلت أسلحته وحزمة العقاقير من المسند ذي القوائم الثلاث الذي اتكأ عليه، وكلها أدوات تدل على مهارة صانعها. وكانت الجعبة التي تجمعت بها السهام مربوطة في جراب القوس، واستُخدم الريش الملون لحيوان النيص لتزيينه وجعله تحفة جميلة.

وفي أنحاء الكوخ، تدلت الرسومات ذات الألوان الغريبة، وزاد نور المدفأة الألوان والتصميمات غنى وثراء.

وكان شعر «نسر الحرب» أبيض لأنه عاش طويلاً بين الثلوج، لكن عينيه كانتا ثابتتين يملأهما البريق كعيني صبي صغير، وهو يحدق بفخر في أحفاده عبر النيران المضرمة في الكوخ. كان الرجل حكيماً وشارك في معارك شتى مع قبيلته. كان عالماً بأحوال الدنيا والناس الذين عاشوا فيها، وكان شديد الورع، فأحبه كل أطفال الهنود لجوده وشجاعته.

Twitter: @ketab_n

وقد جلس حول النار «عجل الجاموس الصغير»، وهو ابن أحد عشر عاماً، وأخته «عينان في الماء»، وهي فتاة في التاسعة من عمرها، و«القوس الجميل»، ابن عمهما، وعمره عشر سنوات، وأخته «الطائر الأزرق» التي لم تتجاوز الثمانية أعوام.

لم يصدر عن هؤلاء الأطفال أي صوت بينما ملأ المحارب الشيخ غليونه الكبير، ولم يكسر حاجز الصمت في الكوخ سوى صوت النيران المضرمة داخل الكوخ. وفي وقار، أشعل «نسر الحرب» التبغ الذي خلطه في غليونه بقشور الصفصاف الجافة، وأخذ يدخنه بهدوء لبضع دقائق، بينما لمعت أعين الأطفال من شدة الترقب. وأخيراً خرج عن صمته قائلاً:

«بلغ النابا الشيخ من العمر أرذله. لقد خلق هذه الأرض وما عليها. جاء من الجنوب، وسافر صوب الشمال، وأثناء مروره خلق الطيور والحيوانات. وخلق العطر حتى تحمله الريح، والألوان خلقها حتى يستخدمها الناس في الحرب. وكان مشغولاً بعمله دوماً، لكنه كان كذاباً كبيراً ولصاً، كما سأبين لكم بعد أن أحكي لكم المزيد. والشيخ هو من علم القندس المكر، وأمر الدب بأن يخلد إلى النوم حين يتساقط الثلج بشدة في فصل الشتاء، ومن جعل منقار الكروان طويلاً معقوفاً رغم أنه

Twitter: @ketab_n

لم يكن هكذا في بادئ الأمر. كان الشيخ يعيش في هذا العالم مع الطيور والحيوانات. ولم يكن هناك في الكون ذكر أو أنثى، وكان زعيما على الحيوانات والطير. فكان يتكلم لغة «أبو الحناء»، ويفهم الدببة ويعرف لغة الإشارة الخاصة بالقندس، وكان يعيش بين الذئاب، الذين هم أمهر الصيادين. وإلى يومنا هذا ما زلنا نستخدم الإشارة ذاتها للتعبير عن الرجل الذكي وعن الذئب، أرأيتم كيف علمهم الكثير عندما كان يعيش معهم؟ لقد اقترف الشيخ الكثير من الأخطاء وهو يخلق الأشياء كما سأريكم، لكنه ظل يعمل حتى أصلح كل شيء. وكثيراً ما أقدم على الأفعال الشريرة وعلم الناس الكثير من الأمور السيئة. وسوف أحكي لكم هذه الأشياء في يوم ما. كان الجميع يخشى الشيخ وحيله وأكاذيبه- حتى الحيوانات قبل أن يخلق الشيخ الرجال والنساء. وكان يزور أكواخ أهلنا ويختلق المشكلات منذ زمن طويل، لكنه تمادى في شرّه حتى غضب منه «المانيتو»، وفي أحد أيام شهر الزهور، قام ببناء كوخ للشيخ وطلب منه ألا يبرحه إلى الأبد. فاضطر أن ينصاع لأمره، ولم يعرف أحد أين هذا الكوخ، ولا في أي أرض، ولهذا نحن لا نراه الآن كما اعتاد أجدادنا رؤيته منذ زمن بعيد.

Twitter: @ketab_n

«ما سأقصه عليكم الآن حدث حينما كان العالم حديث الخلق. في يوم صيف جميل، كان الشيخ مسافراً في الغابة، ومضى نحو الشمال في خط مستقيم كالسهم، لا يرى ولا يسمع شيئاً. ولا يدري أحد حتى يومنا هذا عما كان يبحث. وقد تحدثت إليه الطيور وسكان الغابة بكل أدب أثناء مروره، لكنه لم يجب أحداً منهم. سأله السنجاب الذي يسكن شجر الصنوبر، والذي يحاول دوماً أن يتدخل في شؤون الغير، سأله إلى أين هو ذاهب، لكن الشيخ لم يخبره. وأخذ نقار الخشب يطرق في شجرة ميتة حتى يصبح شكله كما يبدو الآن، بيد أنه لم يستطع. ورأته الأيائل وكذلك الظباء وهو يعبر الغابة، وأجمعوا على أنه ينوي عملاً شريراً أو أنه سيتوقف ويتحدث إليهم لبرهة. فتهامست أشجار الصنوبر وهمهمت الأشجار إليه بالتحية، لكنه ظل ناظراً أمامه، وواصل سيره.

كانت الشمس منخفضة حين سمع الشيخ أنيناً (وهنا قلد «نسر الحرب» صوت الأنين ليسمع الأطفال)، وحين استدار رأى محارباً مصاباً ينزف بالقرب من ينبوع مياه باردة. ركع الشيخ بجانب المحارب وسأله: «هل شبت حرب في هذا البلد؟».

Twitter: @ketab_n

أجابه الرجل: «نعم، لقد قضينا اليوم بطوله ونحن نقاتل شخصاً واحداً، وأخشى أنه قضى علينا جميعاً».

قال الشيخ: «يا له من أمر غريب، كيف يمكن لشخص واحد أن يقتل كل هؤلاء الرجال؟ من هذا الإنسان؟ أخبرني باسمه!»غير أن الرجل لم يجبه، إذ أنه كان قد فارق الحياة. وحين رأى الشيخ أن الرجل الجريح قد فارق الحياة شرب من الينبوع وواصل سيره نحو الشمال، إلا أنه سرعان ما سمع ضوضاء تبدو صادرة عن معركة، فوقف يسمع ويرى. وأخيراً رأى الأشجار تنحني وتتمايل في اتجاه جدول ماء يشق الغابة. زحف نحو هذا المكان ونظر من بين الأشجار ليرى شخصاً ضخماً يقف على مقربة من كومة جثث، متكئاً بظهره إلى شجرة صنوبر. وكان جسد الشخص مدججاً بالسهام، ويحاول انتزاعها من جسده القبيح. وأخذ الشخص يكسر مقابض السهام بهدوء، ويلقيها إلى جانبه، ويكفكف نزيف الدم بضغطة من يديه المشعرتين. وكان رأسه كبيراً ومخيفاً وعيناه صغيرتين يطل منهما الشر، وجسده الضخم أكبر من جسد الثور، وقد ملأته الندوب من أثر المعارك التي خاض غمارها. ذهب الشيخ إلى الجدول، وجلب للشخص بعض الماء في كوبه المصنوع من قرن الجاموس، وسأله وهو

Twitter: @ketab_n

يقترب منه: «من تكون أيها الشخص؟ أخبرني حتى أقدم لك هدية عظيمة لأنك محارب عظيم».

أجابه: «أنا الداء اللعين. تذكرني جميع القبائل التي قابلتها وسوف تتذكرني دوماً، إذ يخشاني أشجع محاربيهم حين أقاتلهم. آتي في المساء، وأحل ضيفاً على مضاربهم في وضح النهار. والأمر دائماً لدي سواء، فهم يخشوني وأنا أصرعهم بلا عناء».

فقال الشيخ: «يا للهول! قل لي كيف تنشر الداء اللعين حيث إني أخوض الكثير من الحروب». وكانت هذه كذبة، لأنه لم يدخل معركة في حياته قط. هز الرجل رأسه القبيح، ثم قال له الشيخ: «لو أخبرتني كيف تنشر الداء اللعين فسوف أجعلك وسيماً وصغير الحجم. فحين تكون كبيراً في مثل حجمك هذا يصعب عليك كسب العيش. وحين تكون صغير الحجم فإن قليلاً من الطعام يسمنك. وسوف تعيش حياة سهلة، لأني سأجعل طعامك ينمو في كل مكان».

قال الشخص: «حسناً. سوف أدلك على ذلك، يجب أن تقتل صغار الظباء والأيائل ما إن تولد. وحين تقتل منها عدداً لا بأس به، اصنع لنفسك من جلودها ثوباً. وكلما ارتديت هذا

Twitter: @ketab_n

الثوب وغنيت– الآن يصيبكم الداء.. الآن يصيبكم الداء، انتشر الداء، وهذا كل ما في الأمر».

قال الشيخ: «حسناً..أخلد الآن إلى النوم، وسوف أنفذ لك ما وعدت».

خلد الرجل إلى النوم، وأطلق الشيخ أنفاسه نحوه فظل حجمه يتضاءل حتى غرق الشيخ في الضحك حين رأى كم صار حجمه. ثم أخذ حافظة ألوانه وقام بتقليم ظهر الشخص بالأسود والأصفر. وكان شكله براقاً وجميلاً. ثم أيقظ الشخص الذي أصبح حيواناً صغيراً ذا ذيل كثيف جميل الشكل.

قال الشيخ: «الآن أصبحت سنجاباً برياً ويجب أن ترتدي هذا الرداء المخطط طوال الوقت. ويجب كذلك أن يرتديه جميع أبنائك وأحفادك».

بعد أن نظر السنجاب البري لنفسه وشكر الشيخ على ثوبه الجديد، سأله كيف يكسب قوت يومه. فقال له الشيخ أن يخبئ الصنوبر حين تصفر أوراقه، حتى لا يضطر إلى العمل في فصل الشتاء.

Twitter: @ketab_n

وقال الشيخ: «أنت الآن من فصيلة سنجاب الصنوبر وسوف تجمع طعامك وتخبئه كما يفعل هو. سوف تصبح رشيقاً وتكسب رزقك بسهولة إذا فعلت ما أخبرتك به».

فعلّم السنجاب البري لغته وإشاراته، ودلّه على مكان يسكن فيه، ثم تركه وواصل سيره مرة أخرى نحو الشمال. ظل يبحث عن أنثى البقر والظبي وسرعان ما قتل الكثير من صغارها ليصنع ثوباً كما أخبره الشخص. فقد كانت هذه الحيوانات كثيرة قبل أن يأتي الرجل الأبيض ليعيش في هذا الكون. وجد مكاناً ظليلاً بجوار جدول ماء، فجلس يصنع الثوب الذي سوف يبث الداء اللعين أينما غنى أغنيته الغريبة، لكن الثوب كان بني اللون ولم يعجبه مظهره المُصمَت. وفجأة خطر بباله كم بدا ظهر السنجاب البري جميلاً، بعد أن ميّزه بالخطوط الملونة. أخرج جعبة ألوانه القديمة واستخدم الألوان نفسها ليجعل ثوبه مثل رداء السنجاب البري. وكان فخوراً بصنيعه، وأعجبه الرداء الجديد أكثر، لكنه كان كسولاً وأراد أن يوفر جهده، فأرسل الريح الجنوبية لتخبر إناث الظباء والأيائل أن تأتي إليه. فجاءت جميعاً إليه على الفور بمجرد أن وصلتها الرسالة، لأنها تخشى الشيخ وتحاول دوماً إرضاءه. وحين وصلت إلى مكانه قال لها: «أترين هذا الثوب؟».

فأجابت: «نعم نراه».

Twitter: @ketab_n

«في الحقيقة أنا صنعته من جلود أبنائكم وقمت بطلائه ليبدو مثل ظهر السنجاب البري لأني معجب بردائه. وسوف أحتاج إلى المزيد من هذه الأثواب طوال حياتي، ولا أرغب في أن أقضي وقتي في طلاء كل ثوب أصنعه، لذا من الآن فصاعداً سوف يولد أبناؤكم بملابس منقطة. أريدها كذلك حتى توفر عليّ الجهد. ويجب أن تغطي النقاط البيض أجسام جميع صغار الظباء (هنا أشار للنقاط على ثوب الداء اللعين) أما بالنسبة إلى صغار الأيائل فيجب أن تكون النقاط شديدة البياض وأن تكون مصفوفة وأن تبدو مائلة للصفرة». ثم أراها ثوبه حتى تعرف حقيقة قصده.

ثم قال: «تذكرن، من الآن فصاعداً لا أريد أن أرى أياً من أطفالكن يرتدي ملابس غير ملونة، لأن ذلك يعني المزيد من العمل لي. والآن ارحلن وتذكرن ما قلته، وإلا أصبتكم جميعاً بالداء».

فرحت إناث الظباء والأيائل حين عرفت أن ملابس أبنائها سوف تكون جميلة، ثم انصرفت إلى صغارها الذين اختبأوا بين الأعشاب الطويلة حيث يصعب على الذئاب وأسود الجبل العثور عليهم، فأنتم تعرفون أن صغار الظباء لا تترك رائحة في أثرها ولا يستطيع الذئب أن يقتفي أثرها وحده. وهذه طريقة

Twitter: @ketab_n

«المانيتو» في رعاية الضعفاء، وكل سكان الغابة يعرفون ذلك.

الآن بتم تعرفون لماذا ظهر السنجاب البري مخطّط، ولماذا يرتدي صغار الأيائل والظباء ملابسهم الجميلة.

أسمع صياح البوم الآن، وحان الوقت لجميع الصغار، الذين سيصبحون محاربين في يوم من الأيام، لكي يخلدوا إلى النوم، ولجميع الفتيات لكي يرتحن ويحتفظن بجمالهن إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

كيف حصل البط على ريشه الجميل

حلت ليلة جديدة وقطعت طريقي إلى كوخ «نسر الحرب». في نور القمر الساطع. راحت أوراق الشجر الميتة تتساقط كلما هزت الريح الأشجار، وعبر القرية مرت أسراب هائلة من البط والإوز والبجع في موكب لا نهاية له، تنادي بعضها بأصوات غريبة وهي تتسارع نحو مياه لا تتجمد أبداً.

وفي الكوخ كان «نسر الحرب» ينتظر أحفاده، وحين دخلوا عليه في سعادة ومرح، وضع غليونه جانباً وقال: «البط يسافر هذه الليلة كما يفعل دوماً منذ أن بدء الخليقة، يهرب من الشتاء الذي لا يستطيع فيه كسب قوته حين يغطي الجليد النهر. لقد شاهدتم البط كثيراً ولاحظتم الريش الجميل الذي يرتديه، لكنكم لا تعرفون كيف حصل البط على هذا الرداء. هذا ما سأحكيه لكم الليلة.

Twitter: @ketab_n

حدث ذلك منذ زمن بعيد في الخريف حين اصفرّت وريقات الشجر. فقد تجمع البط من أجل الرحيل مثلما يفعل الآن. ونزلت ذكور الظباء من فوق قمة الجبل ليزوروا أصدقاءهم في السهول إلى جوار المياه المتدفقة كما هي عادتهم. وعلى البحيرة، رأى الشيخ البط يستعد للرحيل، وكان جميع البط يشبه بعضه بعضاً، إذ ارتدى الملابس الملونة نفسها. وكان البط والإوز يلهون معاً تحت ضوء الشمس، ويضحكون في سعادة وكانت حركات الغطس سريعة وممتعة. وعلى التل حيث وقف الشيخ، وكان هناك الكثير من الطحالب التي كان يزيلها من فوق الأرض ويصنع منها كرات كبيرة. وحين جمع ما يحتاج إليه، حمل حمولة واتجه بها نحو شاطئ البحيرة، وهو يترنح تحت ثقل الحمل العظيم. وأخيراً رآه البط قادماً ومعه حمولة من الطحالب، وأخذ يسبح بعيداً عن الشاطئ. ونادى: «انتظروا يا إخوتي. لدي حمل ثقيل هنا وسوف أهديكم رقصة. تعالوا ساعدوني حتى أستعد».

قال الإوز الرمادي للآخرين: «لا تفعلوا ذلك، هذا هو الشيخ وهو ينوي شراً. أنا واثق من ذلك».

نادى الإوز الشيخ وقالوا إنهم لن يساعدوه. وبالقرب من الماء أسقط الشيخ كرة الطحالب ثم قطع عشرين جذعاً طويلاً.

Twitter: @ketab_n

وبنى كوخاً بالجذوع وغطاها بالطحالب، تاركاً مدخل الكوخ في مواجهة البحيرة. وأشعل النار داخل الكوخ، وحين أضاءت صرخ: «قولوا لي يا إخوتي، لماذا تعاملونني بهذه الطريقة، رغم أني أتيت لأهديكم رقصة كبيرة؟ تعالوا داخل الكوخ»، لكنهم لم يفعلوا ذلك. أخيراً بدأ الشيخ يغني أغنية بلغة البط، ويعزف على طبلته. فأعجب البط بالأغنية، وسبحوا قليلاً نحو الشاطئ، وهم متوقعون أن يسبب لهم مشكلة في أي وقت، إلا أن الشيخ غنى غناءً عذباً وسرعان ما اتجه البط نحو الكوخ ودخلوه. توقف البط بجوار الباب لأنهم صدقوا ما قاله الإوز الرمادي، وكان الشيخ يتربّص شراً. حرص الإوز الرمادي على أن يبقى قرب الباب، أما البط فانتشر حول النار. مرر الشيخ غليونه بأدب ودخنوا معه جميعاً لأنه من غير الأدب ألا يدخنوا في كوخ شخص قدم لهم الغليون، وكان البط يعرف ذلك جيداً.

قال الشيخ: «حسناً سوف تكون هذه الرقصة العمياء، لكن يجب أن أقوم بطلائكم أولاً، أخي مالارد، اختر الألوان، قل لي كيف تريدني أن أطليك؟».

Twitter: @ketab_n

أجاب ذكر البط البري: «حسناً، اطل رأسي باللون الأخضر وارسم دائرة بيضاء حول حنجرتي مثل العقد، أريد صدراً بنياً وقوائم صفراء، ولا تطل زوجتي بالألوان نفسها».

قام الشيخ بطلائه مثلما طلب وكذلك زوجته. ثم قام بطلاء بط الخشب (وأخذ وقتاً طويلاً في ذلك) و«أبو ملعقة»، والبط أزرق المنقار والبط البري الأمريكي والإوز، كلهم اختاروا ألوانهم. قام الشيخ بطلائهم حسب رغباتهم وظل يغني طوال الوقت. بدا شكلهم رائعاً في ضوء المدفأة، وحل الليل ولم يكن قد انتهى من الطلاء.

قال الشيخ: «الآن لأنها رقصة عمياء، أغمضوا أعينكم تماماً والتفوا حول النار حين أقرع الطبل وأصدح بالغناء. ومن يسترق النظر، سوف تلتهب عيناه إلى الأبد».

«أغمض البط أعينهم وشرع الشيخ في الغناء وقال: «هلمّوا إليّ معشر البط، تعالوا الآن، طم، طم، طم، طم، طم، طم».

«التقوا حول النار ولا تزال أعينهم مغمضة، وبمجرد أن اقتربوا من الشيخ، انقض الوضيع عليهم ولوى رقابهم. فكانت الأمور تسير على ما رام الشيخ، لكن أحد البط اختلس النظر

Twitter: @ketab_n

ورأى ما يحدث، وسمع آخرون صوت الهياج ففتحوا أعينهم أيضاً. وصاح البط: «إنه يقتلنا، هيا نهرب» ولاذوا بالفرار. كان هناك صراخ وهياج شديد حين هربت جموع البط إلى خارج الكوخ. لكن الغضب تملّك من الشيخ، فركل البط في ظهره، ولهذا تتلوى قدمه حين يمشي الآن أو يحاول الوقوف، لذلك هو مشلول حتى هذا اليوم.

كما أصيبت أعين كل البط الذي استرق النظر في تلك الليلة وقت الرقصة، كما حذرهم الشيخ. بالطبع لم تعد تؤلمهم حتى الآن، لكنها ما زالت حمراء عقاباً لهم لأنهم استرقوا النظر، وسوف تظل كذلك.

رأيتم يا صغاري البط البري وبقية البط. وكما ترون فالألوان التي استخدمها الشيخ في الطلاء لا تزال براقة وجميلة وسوف تبقى كذلك إلى الأبد».

Twitter: @ketab_n

لماذا يرتدي الطائر الرفراف خوذة الحرب دائماً

حين تهبط ليالي الخريف فوق الجزء العلوي من نهر ميسوري في مونتانا تكون رائعة الجمال، وفي هذا الجو الخيالي الساحر يجد من يعيش في البرية صحبة دائمة تطلق أصداء غريبة إلى جانب أصوات الإنسان والذئاب، ما يجعل الأشكال الغريبة في الظلال تبدو معتادة.

لم يكن القمر قد ارتفع خلف الجبل البعيد ليطل على الأراضي الأكثر تواضعاً حين توجهت إلى كوخ «نسر الحرب»، وقد تمدد درب التبانة في صفحة السماء المرصعة باللالئ، ما أطفأ بريق النجوم في طريقي إليه. يطلق الهندي على ذلك الشعاع الرقيق الذي ينبئ بجمال الجو اسم «ممر الذئب»، والليلة تحمل وعداً جديداً حيث يبدو الجو أصفى وأكثر إشراقاً من ذي قبل.

«هاو.. هاو»، كانت هذه تحية «نسر الحرب» لي والتي دعاني بها لأجلس إلى جانبه بعد أن دخلت الكوخ.

ثم مرر إليّ غليونه ودخّناه معاً حتى وصل الأطفال.

Twitter: @ketab_n

دخل الأطفال بهدوء وجلسوا في الأماكن نفسها التي جلسوا فيها في الليالي السابقة، وانتظروا في صمت وصبر. وفي النهاية، وضع «نسر الحرب» غليونه جانباً وقال: «يا أيها العجل الصغير، ألق حطبة كبيرة في النار وسوف أقول لك لماذا يرتدي الطائر الرفراف خوذة الحرب».

فعل الصبي مثلما أمر. وقفز الشرر في المدخنة وأضاءت الشعلة الكوخ حتى صار كوضح النهار، وتابع «نسر الحرب» القول: «أعلم أنكم كثيراً ما شاهدتم الطائر الرفراف وهو يصطاد على ضفاف النهر، وقد سمعتموه يضحك بطريقة غريبة، لأنه يضحك كثيراً أثناء طيرانه. وكادت الضحكة نفسها تودي بحياته ذات مرة كما سترون. أنا متأكد أن كل من رأى الطائر الرفراف لاحظ غطاء رأسه الكبير ولكن لا أحد يعلم كيف حصل عليه لأن ذلك حدث منذ زمن بعيد يصعب على أغلب الناس ذكره.

في يوم من أيام الشتاء، خرج الشيخ ومعه الذئب للصيد. غطى الجليد اليابسة والأنهار. وكان الجو شديد البرد حتى أن الشيخ تلفع بردائه وبدت أنفاسه بيضاء. وطبعاً لم يشعر الذئب بالبرد لأن الذئاب لا تشعر بالبرودة كالإنسان. وكان الشيخ والذئب جائعين بعد رحلتهما الطويلة التي لم يقتنصا أي حيوان

Twitter: @ketab_n

فيها. فأخذ الشيخ يشكو ويتذمر، ذلك أنه لم يكن قنوعاً أو ذا قلب سليم. ليس شيئاً جيداً أن نتذمر حين نفعل أقصى ما في وسعنا لأن ذلك لن يفيد وسوف يصيب قلوبنا بالضعف والوهن. وحين تصاب قلوبنا بالداء، تمرض عقولنا وتخر قوانا. فالتذمر أمر مذموم.

وحين تنخفضت الشمس في السماء، وصل الشيخ والذئب إلى النهر العظيم. وفوق الجليد الذي يغطي الماء، شاهدا أربعة ثعالب ماء سمان تلهو وتلعب.

قال الذئب: «ها هو اللحم، انتظرني هنا وسأحاول أن أصطاد واحداً من هذه الثعالب».

صرخ الشيخ: «لا! لا! لا تطارد ثعالب الماء فوق الجليد حيث يوجد حفر هواء في الجليد الذي يغطي النهر، وقد تسقط في الماء وتموت». ولم يكن الشيخ يكترث بغرق الذئب، لكنه كان يخشى أن يتركه وحده جائعاً وسط هذا الجليد.

قال الذئب: «أنا أجري بسرعة وأسناني بيضاء وحادة. ما هي فرصة ثعلب الماء في النجاة مني؟ بلى سوف أذهب». وذهب بالفعل.

«هرب ثعلب الماء بعيداً وخلفه الذئب بينما وقف الشيخ على

Twitter: @ketab_n

ضفة النهر وارتعد من الخوف والبرد. بالطبع كان الذئب أسرع من ثعلب الماء، لكن تذكروا أنه كان يركض على الثلج وكان ينزلق كثيراً. واقترب الذئب أكثر فأكثر. وكان على وشك الانقضاض على ثعلب الماء بالفعل، حين قفزت ثعالب الماء كلها في حفرة في الجليد. ركض الذئب بسرعة وسقط في الحفرة بسرعة وحمله التيار تحت الجليد. كانت الثعالب تعلم بوجود الحفرة. فقد كان هذا بلدهم وكانوا يركضون ليصلوا إلى هذه الحفرة طوال الوقت لكن الذئب لم يكن يعلم ذلك.

شاهد الشيخ كل ذلك وأخذ يبكي وينتحب مثل النساء. لكنه أحدث ضجة كبيرة. وركض بمحاذاة ضفة النهر وبدأت خطواته تتعثر في الثلج وهو يبكي كأم فقدت صغيرها. لكنه كان يبكي لأنه يخشى البقاء منفرداً في تلك البلاد، وليس حباً بأخيه الذئب. أخذ يركض كثيراً حتى وصل إلى مكان لا تتجمد فيه المياه من سرعة تدفقها، وهنا وقف يحدّق في الماء منتظراً أن يخرج الذئب من تحت الثلج وهو يبكي وينتحب ويصدر أصواتاً لا يصدرها الرجال.

وهنا حدث ما حدث. فكما ترون، لا يستطيع الطائر

Twitter: @ketab_n

الرفراف أن يصطاد من بين الثلج وهو يعلم ذلك أيضاً. لذلك فهو دائماً ما يبحث عن أماكن مثل التي وجدها الشيخ. وكان الرفراف في ذلك اليوم جالساً على غصن شجرة بتولا يشاهد الأسماك، وعندما اقترب الشيخ من الشجرة التي ينتظر فوقها الرفراف وهو يبكي كالنساء، صدح الصياد بضحكته الغريبة العالية. فسمعه الشيخ وغضب غضباً شديداً. ونظر حوله ليرى من الذي يسخر منه، فأضحك الرفراف مرة ثانية، لكن هذه المرة بصوت أعلى. هذه المرة رآه الشيخ ثم ألقى عليه هراوة الحرب وحاول أن يقتل الطائر لأنه سخر منه. فحلق الطائر الرفراف بسرعة، فلم يطاوله من هراوة الشيخ سوى أنها حفّت بريش رأسه، فجعلته منتصباً إلى أعلى.

قال الشيخ: «هكذا أعلمك كيف تسخر مني حين أكون حزيناً. إن الريش يقف فوق رأسك الآن وستظل هكذا إلى الأبد. سوف ترتدي هذه القبعة فوق رأسك ما حييت لتدفع ثمن سخريتك مني وكذلك جميع أبنائك».

كان هذا منذ زمن بعيد جداً، لكن جميع الطيور الرفرافة

Twitter: @ketab_n

لم تنس ذلك، وهم حتى الآن يرتدون خوذات الحرب وسوف يرتدونها إلى الأبد.

والآن سوف أتمنى لكم نوماً هانئاً وحين تغرب شمس الغد، سوف أحكي لكم عن السبب الذي جعل منقار الكروان طويلاً ومعقوفاً».

Twitter: @ketab_n

لماذا يبدو منقار الكروان طويلاً ومعقوفاً

حين وصلنا إلى كوخ «نسر الحرب» توقفنا بالقرب من الباب، وكان يغني بعض الأغاني القديمة الحزينة التي تعود إلى زمن الشباب، وكان يصاحبها قرع الطبول. فأثارت الموسيقى شجوني ولم أدخل إلا حين توقفت.

ألقى علينا التحية ولم يكن في صوته نبرة الحزن نفسها التي سمعتها أثناء غنائه.

«لقد أتيتم الليلة لتعرفوا لماذا يبدو منقار الكروان طويلاً ومعقوفاً. سوف أحكي لكم كما وعدتكم، لكن دعوني أدخن غليوني أولاً».

انتظرنا في صمت حتى وضع غليونه جانباً، ثم بدأ «نسر الحرب»:

Twitter: @ketab_n

«الآن تعرفون أن الشيخ ليس حكيماً على الدوام، وحتى إن كان خلق هذا العالم وما فيه. فهو كثير الوقوع في المشكلات، لكنه دائماً ما يخرج منها بطريقة أو بأخرى. وما سأقصه عليكم سوف يوضح لكم أنه ليس أمراً جيداً أن نفعل أموراً لمجرد أن غيرنا يفعلها. قد تكون هذه الأمور عادية بالنسبة للآخرين، لكنها أعمال خاطئة إذا اقترفناها، بيد أنه الشيخ كما سترون لم يفهم ذلك.

في يوم من الأيام رأى بعض الفئران تلعب واقترب ليشاهدها. كان فصل الربيع وكان الثلج قد بدأ يذوب فوق سطح الأرض. كان هناك صخرة مسطحة ضخمة وبارزة في ضفة النهر بالقرب من جدول الماء وكانت الشمس قد أذابت الثلج عن سطح الأرض من حولها فأوشكت الصخرة أن تقع. بدأ كبير الفئران في الغناء بينما رقصت بقية الفئران وأخذ كبيرها يصيح فكانت الفئران كلها تدور حول الصخرة الكبيرة. وعلى الجانب الآخر، كان كبير الفئران يغني مرة ثانية ثم يقول «الآن!»، ثم تعود جميعاً لتقف ثانية تحت الصخرة الخطرة. أحياناً كانت تتكسر قطع صغيرة من الوسخ العالق بالصخرة وتسقط بالقرب منها وكأنها تحذير للفئران بأن الصخرة على وشك السقوط ولكنها لم تعر

Twitter: @ketab_n

أي اهتمام لهذا التحذير وواصلت لعبها. وأخيراً قال الشيخ: «يا كبير الفئران، ما قولك في أني أرغب في تجربة هذه اللعبة فأنا أجيد الجري».

لم يكن يجيد الجري كما تعلمون ولكنه اعتقد أنه يعرف كيف يجري. وهكذا نقترف الأخطاء الجسام عندما نحاول أن نفعل أشياء ليست في استطاعتنا.

صرخ كبير الفئران: «لا، لا» بينما كان الشيخ يعد للسباق حول الصخرة. «لا! لا! سوف تهز الأرض. إن وزنك ثقيل وهذه الصخرة قد تسقط وتقتلك. إن جماعتي يتميزون بالسرعة وخفة الوزن. نحن نستمتع بوقتنا ولكن إذا حاولت تقليدنا فقد تصاب بأذى وهذا سوف يفسد متعتنا».

قال الشيخ: «تراجعوا، سوف أثبت لكم براعتي في العدو».

«بدأ يجري مثل دب عجوز سمين وأخذت الأرض تهتز تحت ثقله. وسرعان ما سقطت الصخرة الضخمة فوق الشيخ وأسقطته في الطمي. فأخذ يصرخ طالباً المساعدة. جرت كل الفئران بحثاً عن المساعدة. ومضى وقت طويل حتى وجد الفئران من يمكنه ذلك: وجدوا القيوط وحكوا

Twitter: @ketab_n

له الحكاية من أولها. ولم يكن القيوط يحب الشيخ، لكنه قال إنه سيذهب ليرى ما حدث وما يستطيع تقديمه من مساعدة. دلته الفئران على الطريق وحين وصلوا إلى المكان كان الشيخ غارقاً في الطين وخلفه الصخرة الضخمة. كان غاضباً حتى أخذ يتفوه بأشياء لا يصح التفوه بها حيث إنها لا تفيد وإنما تزيد الموقف سوءاً.

قال القيّوط: «لا تتحرك أيها الطفل الصغير. توقف عن الركل في غضب. إن الطين يطير في عيني. كيف سأرى وعيناي يملؤهما الطين؟ سوف أحاول أن أخرجك من ورطتك». وقد حاول بالفعل ولكن الشيخ أهان القيّوط ونعته بأسماء سيئة حتى قال القيّوط: «فلتبقَ هنا كما أنت» وتركه ورحل بعيداً.

«بدأ الشيخ يطلب المساعدة مرة ثانية وشاهد الكروان الذي كان يطير فوق المكان هذا المأزق ونزل إلى الأرض ليعرض المساعدة. في هذا الوقت كان منقار الكروان قصيراً وكثيفاً، وكان يظن أن بإمكانه أن يكسر الصخرة باستخدام منقاره. أخذ ينقر وينقر دون أن يحرز أي نتيجة حتى غضب الشيخ منه مثلما غضب سابقاً من القيّوط. وكلما حاول

Twitter: @ketab_n

الكروان أكثر أهانه الشيخ الذي فقد أعصابه تماماً وهو أمر خاطئ كما تعلمون حيث أننا نفقد أصدقاءنا بهذه الطريقة. فالعصبية بمثابة كلب مسعور بجوار كوخ، لن يأتي الأصدقاء لزيارة أهل الكوخ طالما الكلب موجود.

قام الكروان بأقصى ما في وسعه، لكنه قال في النهاية: «سوف أذهب لعلّي إيجاد من يساعدنا. أعتقد أني صغير وضعيف. سوف أعود إليك». كان واقفاً بالقرب من الشيخ حين بدأ يتكلم فمد الشيخ يده وأمسك بالكروان من منقاره. بدأ الكروان يصرخ ويصيح كما نسمعه يصيح كل صباح. تعلق الشيخ بالمنقار وأخيراً قام بجذبه حتى أصبح طويلاً ونحيفاً ثم قام بثنيه إلى الأسفل كما يبدو إلى يومنا هذا. ثم تركه وهو يسخر منه.

«كم أصبحت الآن طائراً غريب المنظر. هذا المنقار ليس جميلاً ولكنك سترتديه أنت وأبناؤك من الآن فصاعداً».

لقد نسيت من الذي أخرج الشيخ من ورطته ولكني أظن أنه الدب. على أية حال فقد خرج من الورطة بطريقة ما وعاش هو ليخلق المشكلات إلى أن ضاق «المانيتو» به ذرعاً.

Twitter: @ketab_n

وقد فعل الشيخ أشياء جيدة.. وسوف أحكي لكم مساء غد لو أتيتم مبكراً، كيف خلق الشيخ العالم بعد أن أعلنت الماء الحرب على اليابسة وأصيب في هذه الحرب كل الحيوانات والطيور. وسوف أحكي لكم أيضاً كيف خلق أول رجل وامرأة ومن كانا.

والآن نام طائر الطيهوج ولم يعد يتحرك إلا من خلق ليعيش في الظلام مثل البوم والذئاب».

Twitter: @ketab_n

الشيخ يُعلق على العالم

كانت الشمس قد اختفت لتوها خلف التلال حين توجهنا إلى كوخ «نسر الحرب».

قال «الشخص الآخر»: «سوف يكون الغد يوما جميلاً إذ يقول أجدادنا إن السماء الحمراء هي وعد من الشمس بطقس جميل والشمس لا تكذب أبداً».

قال الطائر الأزرق: «أجل، وقد قال إن القمر حين يكون جديداً يسافر نحو الجنوب في هذا الوقت من العام. وهذا يعني أن الطقس سيكون جميلاً ودافئاً».

وقال الرمح الجميل بفخر: «ليتني أعرف ما عرفه أجدادي».

وضع «نسر الحرب» غليونه جانباً ساعة دخولنا الكوخ وقال: «لقد أخبرتكم أن الشيخ علّم الحيوانات والطيور كل ما تعرفه. لقد خلقها ومن ثم أفهم كل منها ما يجب أن يفهمه كي يكسب قوته. ولم تنسَ الحيوانات والطيور أياً من الأشياء

Twitter: @ketab_n

التي علّمها إياها حتى يومنا هذا. لقد أخبر أجدادها صغارهم ما قصه الشيخ عليها، مثلما أحكي لكم عن الأشياء التي يجب أن تتعلموها. افعلوا ما فعلته الحيوانات والطيو، أخبروا أبناءكم وأحفادك بما أخبرتكم به حتى يعلم قومنا كيف خُلقت الأشياء ولماذا الأشياء الغريبة حقيقية.

لقد علم الشيخ القندس كيف يبني السدود كي يزيد من عمق الماء، وعلم السنجاب زرع الصنوبر حتى تنمو أشجار أخرى يحصد منها الأبناء، وأخبر الدب أن ينام في الشتاء، حين يعوقه ثلج الشتاء عن المشي بأرجله القصيرة، وعلمه كيف ينام ووعده بأنه لن يحتاج إلى اللحم طوال سباته. طوال الشتاء ينام الدب ولا يأكل شيئاً لأن الشيخ أخبره أن ذلك ممكن. لذا فهو ينام كثيراً أثناء الشتاء ويقضي معظم فصل الصيف في الصيد.

والشيخ هو من علم البوم كيف يصطاد في الليل وهو من علم ابن عرس كل أفعاله – وعطشه للدماء – ذلك أن ابن عرس هو أشجع الحيوانات بالنظر إلى حجمه. وقد علم القنادس أمراً غريباً لاحظتموه، وهو أن تضع العصي في أعماق الجداول حتى تظلّ هناك أطول فترة ممكنة.

Twitter: @ketab_n

كلما وقعت الحيوانات في المشكلات راحت تبحث عن الشيخ لتخبره عنها. كان الجميع مشغولين بالعمل وكسب العيش حتى بدأ ينهمر مطر في يوم من الأيام. لم يكن المطر شديداً إلا أنه لم يتوقف كما كان يحدث من قبل. بل ظلت السماء تمطر حتى فاض النهر وطاردت المياه ابن عرس خارج حفرته في الأرض. كما وجدت مخبأ الأرنب وأجبرته على الخروج منه. وتسللت إلى كوخ الذئب وأخافت زوجته وأطفاله. وهطلت الأمطار داخل عرين الدب بين الصخور حتى اضطر إلى أن يتحرك. وزحفت المياه تحت زنود الخشب في الغابة ووجدت الفئران ومضت تطاردها خارج بيوتها في جماجم الجاموس. وفي النهاية انهار سد القندس مما زاد الأمر سوءاً. كان الأمر بالفعل في غاية السوء. الجميع ما عدا السمك كان خائفاً وذهب الجميع ليبحثوا عن الشيخ لكي يفسر لهم ما حدث. وأخيراً عثروا على ناره وهو جالس على مقعد من الخشب وقالوا له إنهم يرغبون في استشارته على الفور.

كان مشهداً غريباً أن ترى الصقر جالساً بجوار طائر الطيهوج والأرنب بجوار حيوان الوشق والفأر بجوار القط، والطائر الطنان الصغير يهمس في أذن الصقر كما لو كانا صديقين

Twitter: @ketab_n

حميمين. جلسوا ملتفين حول نار الشيخ وهم يتحدثون بالهمس أو بالإشارة. بل إن الأيل تحدث إلى الأسد الجبلي وقال الظبي للذئب إنه سعيد برؤيته لأن الخوف جعل منهم جميعاً أصدقاء.

توقف الهمس والإشارات حين رفع الشيخ يده هكذا (رفع «نسر الحرب» يده موجهاً راحة يده للخارج)، وسألهم ما هي المشكلة.

بالطبع تحدث الدب أولاً، وحكى كيف أجبرته المياه على الخروج من ملاذه. قال إن الحيوانات تغادر منازلها وإنه يخشى من ألا يتمكنوا من إيجاد أماكن جيدة يعيشون فيها بسبب المياه. ثم تحدث القندس لأنه كان حكيماً وكان جميع من في الغابة يعلمون ذلك. قال إن السدود لن تمنع الماء الذي يعلو عليها، فأصبح العالم كله بحيرة وبقينا نحن فوق جزيرة. قال إن بإمكانهم العيش في الماء أكثر من أغلب الناس ولكن من وجهة نظره كان الجميع سوف يموت ماعدا السمك الذي يعيش في الماء على أي حال. قال إنه لا يستطيع أن يفكر في حلّ لهذه الورطة، ثم جلس وبدأ الهمس والتكلم بلغة الإشارة مرة ثانية.

أخذ الشيخ يدخّن غليونه وقتاً طويلاً وهو ويفكر. وأخيراً أمسك بعصاه السحرية وبدأ يغني أغنية الحرب. ثم أدرك

Twitter: @ketab_n

الباقون أنه اتخذ قراراً معيناً. ضرب شجرة الصنوبر العملاقة وسقطت. ثم سقطت الشجرة والأخرى حتى أسقط عشرة من أطول الأشجار وأضخمها. قام الشيخ بقطع الزنود وبمساعدة السحر قام بربطها ببعضها بعضاً. طلب من القندس أن يقطع له الصفصاف وربط الزنود سريعاً حتى أصبحت كتله واحدة. كان طوفاً عملاقاً بناه الشيخ، حيث غنى أغنيته في الظلام. وأخيراً صاح: «هلموا جميعاً واركبوا هذا الطوف الذي بنيته». وبالفعل أسرعوا جميعاً.

ولم يمض وقت طويل حتى غمرت المياه الأشجار وزحفت بينها وتخطت الطوف ودخلت الغابة سعياً لخلق مشكلة جديدة.

مع مرور الوقت بدأ الطوف يئن وبدأت أشجار الصفصاف تصرخ وتبكي وكأنها أشباح تبكي في كنف الليل. ثم بدأت الزنود الضخمة ترتعش فيما حملتها المياه فوق الأرض. كانت الأمطار تتساقط- وقد حل المساء وجعل الخوف من أشجع الشجعان جباناً. كانت هناك ضوضاء غريبة في أنحاء الغابة- ضوضاء تملأ القلب رعباً- وبدأ الطوف يتخبط بين الأشجار الضخمة المنبثقة من الأرض.

Twitter: @ketab_n

أخذ الطوف يعلو أكثر فأكثر، يعلو فوق لحاء الأشجار بل يعلو فوق أغصانها وفوق عش نقار الخشب وفوق قمة الأشجار وفوق الجبال. ثم اختفى العالم بعد أن أغرقت المياه اليابسة في حربها عليها.

طلع النهار واستمر المطر في الهطول. وأمسى الليل والمطر لا زال ينهمر. لعدة أيام وليال جرفتهم مياه الأمطار وأخذوا يدورون في دوامات بينما تلاعبت المياه بالطوف الضخم كما يتلاعب الدب بفأر صغير. كان الوضع سيئاً وشعروا جميعاً بالخوف، بمن فيهم الشيخ.

وفي النهاية أشرقت الشمس ولكن اليابسة كانت قد اختفت. لم يعد هناك سوى الماء. أصبح العالم كله عبارة عن ماء. وصل الماء إلى السماء وغطى أركانها. كان الكل جائعاً وبعضهم أخذ يتذمّر. دائماً ما يكون هناك تذمر في وقت المصاعب ولكن من يتذمر لا يستحق أن يكون قائداً.

وقف الشيخ وسط الطوف، وأخذ يفكر. كان يعلم أن عليه أن يتصرف لكنه لم يعرف ماذا يفعل. وأخيراً قال: «يا أيها السنجاب البري، أحضر لي البط المرقط. قل له إني أريده».

Twitter: @ketab_n

عثر السنجاب البري على البط المرقط وقال له إن الشيخ يرغب في رؤيته فذهب البط ليقابل الشيخ. حين وصل إليه قال له الشيخ: «يا أيها البط المرقط أنا أعلم أنك غطاس ماهر. فأنا خلقتك وأعلم أنه لا يستطيع أحد أن يغطس بمثل مهارتك. لذلك أنا واثق مما أقوله. لو أنك غطست وسبحت إلى أعماق الأرض أعتقد أن بإمكانك أن تجلب لي بعضاً من طين اليابسة، وأنا واثق أن بإمكاني أن أخلق عالماً جديداً».

أجاب البط: «هل هذه المياه شديدة العمق؟ أنا أخشى أن أغرق».

أجاب الشيخ: «وماذا لو غرقت؟ أنا وهبتك الحياة وإذا فارقتها سوف أعيدك إلى الحياة مرة أخرى!».

أجاب البط: «وهو كذلك أيها الشيخ. أنا مستعد للتجربة». فاتجه إلى حافة الطوف. لم يكن البط يجيد المشي وقد شرحت لكم السبب. كان ذلك لأن الشيخ ركله في ظهره في الليلة التي قام فيها بتلوين البط.

غطس البط المرقط في أعماق الماء وبقي تحتها لوقت طويل. والجميع في انتظار وترقب، يرجون له حسن الحظ، لكنه مات

Twitter: @ketab_n

بمجرد أن صعد إلى السطح. تأوه الجميع- وشعروا بألم شديد، بينما وضع الشيخ جثة البط على جذوع الأشجار. وكانت زوجة البط تبكي لكن الشيخ أمرها أن تصمت ففعلت. ثم نفخ في منقار البط فعاد للحياة.

وفي وسط الجموع المتجمهرة سأل الشيخ: «ماذا رأيت يا أخي البط؟».

أجاب البط: «لا شيء سوى الماء. سوف نموت هنا. لا يمكن أن أصل إلى الأرض سباحة قد يتوقف قلبي».

كان هناك كثير من الشجعان على الطوف، وحاول ثعلب الماء أن يصل إلى العالم غاطساً كما حاول القندس والإوز الرمادي وزوجته ولكنهم ماتوا جميعاً ثم أعادهم الشيخ للحياة. ساءت الأمور أكثر فأكثر. كان الكل غاضباً وأخذوا يتساءلون عما سيفعله الشيخ حتى ضحك شخص ما.

والتفت الجميع ليحاولوا اكتشاف الأمر الذي قد يثير الضحك في مثل هذه الظروف والتفت الشيخ أيضاً ليرى أن فأر المسك كان يضحك وهو يودع زوجته. ولكنه لم يعر الشيخ والباقين أي اهتمام وقفز من فوق الطوف إلى الماء. شق الماء بذيله

Twitter: @ketab_n

وكأنه سكين ثم اختفى. فضحك البعض مرة ثانية، لكن الجميع تعجبوا من جرأته وانتظروه وقلوبهم ملؤها الأمل لأنهم لم يثقوا في مهارة فأر المسك.

قضى الفأر تحت الماء وقتاً أطول من البط والقندس وثعلب الماء والإوز الرمادي وزوجته، لكنه مات حين بلغ سطح الماء. فأعاده الشيخ للحياة وسأله عما رآه في رحلته. قال الفأر: «رأيت أشجاراً ولكني فارقت الحياة قبل أن أصل إليها».

أثنى الشيخ على شجاعته. وقال له إنه سيهب شعبه العظمة إلى الأبد لو أنه تمكن من جلب بعض الطين من اليابسة، لذا فبمجرد أن بدأ الفأر يستريح عاد وقفز في الماء مرة أخرى. إلا أنه فارق الحياة حين بلغ سطح الماء. وكان يمسك في يده حفنة من الطين. أعاد الشيخ الحياة للفأر مجدداً وأخبره أنه يريده إرساله مرة أخرى ليأتي بمزيد من الطين لأن الكمية التي أتى بها أول مرة لم تكن كافية، لذلك بعد أن نال قسطاً من الراحة ذهب الفأر للمرة الثالثة فمات للمرة الثالثة، لكنه أتى بمزيد من الطين.

كان كل من في الطوف قلقاً والتفوا جميعاً حول الشيخ ولكنه أمرهم أن يبتعدوا وقد فعلوا. ثم أعاد الفأر للحياة مرة ثالثة ليعود لزوجته.

Twitter: @ketab_n

ثم قام الشيخ بتجفيف الطين بيديه وهو يغني أغنية غريبة. وأخيراً جف الطين تماماً، ثم وضع يده التي يحمل فيها الطين في الماء ببطء حتى لامس الماء الطين. بدأ الطين يدور ونفخ فيه الشيخ. نفخ بقوة وأشار بيديه، فبدأ الطين يتضاعف أمام أعينهم. ظل الشيخ ينفخ في الطين ويلوح بيديه حتى تحول الطين إلى يابسة حقيقية وبدأت الأشجار تنمو. كانت كبيرة جداً لدرجة أنهم لم يستطيعوا أن يروا أي شيء من خلالها. ثم توقف عن النفخ واستمر في الغناء. وكان الجميع يرغب في مغادرة الطوف ولكن الشيخ نهاهم عن ذلك.

وقال للذئب: «تعال إلى هنا أيها الذئب». فذهب الذئب إليه. فقال له: «أنت سريع وشجاع. اركض حول هذه الأرض التي خلقتها لتقيس اتساعها».

بدأ الذئب يركض وعاد للطوف بعد ستة أشهر، وكان قد أصيب بضعف شديد نتيجة الجري لوقت طويل. لكن الشيخ قال إن العالم ليس كبيراً بما يكفي لذا نفخ مرة ثانية وأرسل الذئب ليركض حول الأرض. لم يعد الذئب هذه المرة، فقد خلق الشيخ اليابسة شديدة الاتساع هذه المرة حتى إن الذئب قد فارق الحياة قبل أن يعود للطوف. ثم خرج الجميع للأرض حتى يعيشوا عليها ويكسبوا رزقهم وهم في غاية السعادة.

Twitter: @ketab_n

بعد أن قضوا وقتاً طويلاً على الأرض قال الشيخ: «الآن سوف أخلق رجلاً وامرأة، لأني أشعر بالملل من الحياة معكم أيها القوم. أخذ ثلاث حفنات من الطمي الذي خلق منه العالم ثم شكل به رجلاً وامرأة. ثم وضعهما جنباً إلى جنب ونفخ فيهما. ثم دبت فيهما الحياة. وقد خلقهما يتمتعان بالقوة والصحة وبالجمال. أطلق عليهما اسم «التشيبواس» وعاشا في سعادة في هذا العالم، حتى رأى الرجل الأبيض نسراً محلقاً فوق اليابسة، فذهب ليستطلع الأمر. وقد سرق المرأة، فعلها الرجل الأبيض.. ومن هنا تنحدر جميع القبائل التي نعرفها إلى يومنا هذا. لم تكن دماء أي منهم نقية لكن الآدميين قد خلقهما الشيخ من الطمي وكذلك أبناءهما. وهؤلاء هم التشيبواس!

كانت هذه قصة طويلة والآن يجب أن تذهبوا سريعاً إلى الفراش. وغداً في المساء أقص عليكم حكاية جديدة».

Twitter: @ketab_n

لماذا قبيلة «الأقدام السود» لا تقتل الفئران؟

كان «فأر المسك» وجدته يجمعان الحطب للمخيّم في الصباح التالي حتى عثرا على جمجمة جاموس قديمة. كانت الأرض مكسوة بتذكارات هذا الصيد ذلك أن الرجل الأبيض طالما أثار الفوضى وهاجم العديد من قطعان الجاموس. وكانت هذه الجمجمة في حقل قطن بالقرب من النهر، وحين اقتربا هرع إلى الجمجمة فأران واختفيا داخلها. في جو من المرح، أمسك «فأر المسك» بعصا، وأوشك أن يقلب الجمجمة ويقتل الفأرين حتى قالت جدته: «لا، نحن لا نقتل الفئران، إنها صديقتنا، ويجب أن نتعامل معها على هذا الأساس. فحتى الكائنات الصغيرة يمكن أن تكون صديقة، يجب أن تتذكر هذا».

ظل الصبي يفكر طوال اليوم لماذا يجب ألا يصيب أحد الفئران بأذى. وعندما حل الظلام، جاء إليّ لأصطحبه إلى كوخ «نسر الحرب». وفي الطريق أخبرني عما قالته جدته وأنه ينوي أن يسأل عن السبب بمجرد أن نصل. وقد وجدنا الأطفال الآخرين

Twitter: @ketab_n

هناك وقبل أن نجلس سأل «فأر المسك»: «لماذا يا جدي علينا ألا نقتل الفئران؟ قالت جدتي إنك تعرف السبب».

أجاب «نسر الحرب»: «نعم أعرفه ويجب أن تعرفه أنت أيضاً. لهذا سوف أقول لكم جميعاً الليلة لماذا يجب ألا نصيب الفئران بأذى وأن نتركها وشأنها، فنحن ندين لها بالكثير ودينها لا يمكن سداده. فهي حقاً عظيمة كما سترون.

حدث ذلك منذ زمن سحيق، حين كان هناك القليل من الرجال والنساء في هذا العالم. كان الشيخ كبيرهم وكان عدد الحيوانات والطيور أكثر بكثير من عدد البشر لأننا لم نكن مكثنا على الأرض طويلاً بعد، ولم تكن لدينا الحكمة الكافية.

اعتادت الحيوانات والطيور أن تتشاجر كثيراً فيما بينها. فالدب أراد أن يكون الزعيم بعد الشيخ وكذلك أراد القندس. وصارت كل ليلة تقريباً تجتمع وتتشاجر حول هذا الأمر. وإلى جانب الدب والقندس فإن حيوانات وطيوراً أخرى ظنت أن من حقها تولي الزعامة. ولم تستطع الحيوانات التوصل إلى اتفاق وازداد شجارها سوءاً بمرور الوقت. قال بعضها إن الزعيم يجب أن يكون أعظم لص. وقال بعضها الآخر إن الأكثر حكمة هو الذي سيكون الزعيم. وقال فريق ثالث إن الأسرع هو من يستحق

Twitter: @ketab_n

الزعامة. واستمر هذا الشجار حتى أصبح معظم الحيوانات أعداء لا أصدقاء، ويمكنك أن تسمعها تتشاجر طوال الليل حتى وصل إليها الشيخ.

كان قد سمع عن المشكلة. ولا أذكر من قال له ولكني أعتقد أنه كان الأرنب.على أي حال قام بزيارة المجلس الذي يدور فيه الشجار واستمع لما قاله كل المجتمعين. وقد استغرق ذلك الليل بطوله. وقد سمع كل التفاصيل. وحين فرغوا من كلامهم، دب الشجار بينهم كالعادة، فقال لهم: «توقفوا!»، ففعلوا.

ثم قال لهم: «سوف أنهي هذه المسألة في هذه اللحظة وهذا المكان، حتى لا يحدث المزيد من الشجار بسببها إلى الأبد».

فتح جعبة ألوانه وأخرج منها عظمة ملساء صغيرة. رفع هذه العظمة في ضوء النار حتى يراها الجميع وقال: «سوف أنهي هذا الشجار. ترون هذه العظمة في يدي اليمنى، أليس كذلك؟».

أجابوا: «نعم نراها».

«الآن انظروا إليها وإلى يديّ، فهي سريعة ماكرة».

Twitter: @ketab_n

بدأ الشيخ يغني أغنية المقامرة ويمرر العظمة من يد إلى أخرى بسرعة وخفة حيّرت الجميع. ثم توقف عن الغناء ورفع يديه وكانتا مضمومتين بقوة. وسألهم: «في أي يد أحمل العظمة الآن؟».

قال بعضهم إنها في اليمنى وظن آخرون أنها في اليسرى. طلب الشيخ من الدب أن يقول في أي يد يحمل العظمة وقد أجاب الدب: لكن حين فتح الشيخ يده كانت فارغة، ولم تكن العظمة موجودة. فسخر الجميع من الدب. وابتسم الشيخ وبدأ يغني ويحرك العظمة.

«أيها القندس، إنك ذكي. قل لي في أي يد أحمل العظمة هذه المرة؟».

قال القندس: «في يدك اليمنى. لقد رأيتك تضعها فيها».

فتح الشيخ يده اليمنى على مرأى من القندس، لكن العظمة لم تكن فيها، فضحك الباقون مرة ثانية، خاصة الدب.

قال الشيخ: «الآن ترون أن الأمر ليس سهلاً كما يبدو؟ لكني سأعلمكم كيف تلعبون اللعبة وحين تتعلموها جميعاً يجب أن تلعبوها حتى تكتشفوا الأذكى منكم، وأكثركم دهاء في اللعبة، سوف يصير زعيماً عليكم، تابعاً لي إلى الأبد».

Twitter: @ketab_n

«أبدى بعضهم عدم اكتراث بمن يكون الزعيم، إلا أن معظمهم تعلموا اللعبة وأجادوها. أولاً حاول الدب والقندس، لكن القندس هزمه بسهولة واحتفظ بالعظمة في يده مدة طويلة. وأخيراً تفوق الجاموس على القندس وبدأ يلعب مع الفأر. كانت يدي الفأر صغيرة وأسرع من الجاموس، وكان الأسرع في متابعة العظمة. حاول الجاموس محاولات مضنية لأنه لم يرغب في أن يصبح الفأر زعيماً، غير أن محاولاته باءت بالفشل وانتصر الفأر في النهاية.

كانت لعبة نزيهة وفاز الفأر بحسب الاتفاق. كان يبدو صغيراً جداً مقارنة بالآخرين، لكنه سار إلى وسط المجلس وقال: «اسمعوا يا إخواني، من حقي التصرف فيما هو حق لي. أعلم أني أصغر من أن أكون زعيماً. فأنا لست محباً للحرب. وأريد أن أعيش في سلام مع زوجتي وأسرتي، ولا أعرف شيئاً عن الحرب. إنما أكسب قوت يومي بسهولة ولا أحب أن يكون لدي أعداء. وسوف أتنازل عن حقي في الزعامة للرجل الذي خلقه الشيخ ليكون مثله».

وهكذا أنهى الفأر المسألة وجعل الرجل زعيماً للأبد.. ولذا فهو أعظم من جميع الطيور والحيوانات، ولذلك لا نقتل الفئران أبداً.

Twitter: @ketab_n

بالطبع شاهدتم الفئران تجري لتختبئ في جمجمة الجاموس. وهناك عاشت وكونت عائلاتها منذ الليلة التي هزم فيها الفأر الجاموس في لعبة العظمة. نعم، دائماً ما تبني الفئران بيوتها في رؤوس الجواميس الميتة منذ تلك الليلة.

ولا زال قومنا يلعبون اللعبة نفسها حتى يومنا هذا».

أخرج «نسر الحرب» من جعبة ألوانه عظمة صغيرة ملساء. ثم غنى مثلما فعل الشيخ منذ زمن بعيد. وطلب من الأطفال أن يتكهنوا بأي يد يحمل العظمة مثلما فعلت الحيوانات في تلك الليلة المصيرية. ولكن كان دائماً تخمينهم خطأ مثلما حدث مع الحيوانات في تلك الليلة. فتبسم «نسر الحرب» ضاحكاً وقال:

«الآن اخلدوا إلى النوم وتعالوا إليّ مساء الغد».

Twitter: @ketab_n

كيف أصبح جلد ثعلب الماء دواءً عظيماً

كان الوقت قد تأخر حين غادرنا كوخ «نسر الحرب» في تلك الليلة التي أخبرنا فيها لماذا لا يقتل الهنود الفئران، ولماذا درب التبانة اتخذ اللون الأبيض وخفت بريق النجوم. توقف الأطفال ليتمنوا للمولودة «ترى في الظلام»، أخت الطائر الأزرق المولودة حديثاً، ليلة هانئة ثم أووا جميعاً إلى الفراش.

في اليوم التالي لعب الصبيان لعبة الحرب مثلما يفعل الأطفال البيض، ولعبت البنات بالعرائس التي ترتدي الملابس المصنوعة من جلد الغزال حتى ملوا جميعاً اللعب، وذهبوا لزيارة الأقارب حتى حان وقت الذهاب إلى كوخ الجد، الذي كان يدخن غليونه حين دخلنا عليه، وسرعان ما وضعه جانباً وقال: «تعلمون أن جلد ثعلب الماء دواء عظيم بلا شك. ولاحظتم أن محاربينا يرتدونه في بعض الأحيان، وتعلمون أننا نعتقد أن ارتداء جلد الثعلب يجلب الحظ.

Twitter: @ketab_n

لكنكم لا تعلمون كيف حدث ذلك وهذا ما سأقصه عليكم الآن.

في يوم من الأيام قبل أن يُولد جدي، كان أحد شباب قبيلتنا يعاني من الحظ العاثر في كل شيء. ولم ترغب أي امرأة في الزواج منه، لأنه لم يكن يستطيع صيد ما يكفي من الحيوانات ليوفر مأكلها وملبسها. وكان قوسه ينكسر ويفقد رمحه حين يخرج للصيد. وإن لم يحدث هذا وذاك، كان حصانه يسقط ويصاب بدوره. كان الجميع يتحدث عنه وعن حظه العاثر، ورغم وسامته لم يكن له أصدقاء بسبب سوء حظه. حاول أن يحلم ويجد علاجاً لمشكلته، لكن من دون أن يتحقق له حلم واحد. فضاق ذرعاً بحاله وحزن الناس عليه. وأخيراً تغير اسمه ليصبح «ذا الحظ العاثر» وهو اسم له وقع سيئ على الآذان. كان يهيم على وجهه وحيداً لأوقات طويلة، وذات صباح، رأى امرأة عجوزاً تجمع الحطب على جانب النهر. كاد «ذو الحظ العاثر» أن يبتعد عنها حين توقفت وسألته: «لماذا أرى الحزن على ملامح وجهك الوسيم؟ لماذا هذه النظرة الحزينة في عينيك الجميلتين؟».

أجاب الشاب: «لأن حظي عاثر. دائماً ما أصاب بخيبة الأمل في كل أموري. وما عدت أريد البقاء على قيد الحياة فقد بدأ اليأس يستولي على قلبي».

Twitter: @ketab_n

قالت العجوز: «تعال رافقني». فتبعها حتى طلبت إليه أن يجلس وقالت له: «اسمع ما أقوله لك. أولاً عليك أن تتعلم أغنية تنشدها». ثم بدأت تنشد أغنية غريبة وترددها حتى حفظها الشاب عن ظهر قلب.

«والآن افعل ما أقوله لك وسوف ينعم قلبك بالسعادة يوماً ما». وأخرجت من ثوبها زوج حذاء وكيساً صغيراً به لحم مجفف وقالت له: «هيا، انتعل هذا الحذاء وخذ هذا اللحم لتأكله في رحلتك البعيدة. سافر عبر هذا النهر حتى تصل إلى قرية كبيرة تسكنها القنادس. سوف تجد أكواخهم كبيرة وجميلة وسوف يدلك على المدينة ضخامة الأكواخ فيها. وحين تصل، قف ثابتاً لوقت طويل ثم انشد الأغنية التي علمتك إياها. وحين تنتهي من الغناء سيأتي إليك زعيم القنادس في العالم وهو قندس كبير أبيض اللون. سوف يخبرك بما يجب عليك فعله حتى يتغير حظك، لأنه يتمتع بالحكمة. وبعد ذلك لا أملك لك أكثر من ذلك، لكن افعل ما يقوله القندس الأبيض من دون أن تسأل عن السبب. والآن اذهب وكن شجاعاً!».

بدأ الشاب رحلته على الفور، وكانت خطواته واسعة لأنه شاب قوي. سافر بعيداً عبر النهر وشاهد الكثير من مدن

Twitter: @ketab_n

القنادس، لكنه لم يتوقف إذ لم تكن أكواخهم كبيرة مثلما وصفت العجوز أكواخ المدينة المنشودة. وبدأ يشعر بألم في قدميه لأنه كان يسافر ليل نهار دون راحة، ولكن قلبه كان شجاعاً وكان يؤمن بما قالته العجوز.

وفي ساعة متأخرة من اليوم الثالث، دخل مدينة قنادس عملاقة، وكانت أكواخها أكبر من أي أكواخ رآها من قبل. في وسط المدينة، رأى كوخاً عملاقاً مبنياً من العصي الضخمة، يفوق ارتفاعه بقية الأكواخ. وحول الكوخ، كانت الأرض نظيفة وملساء مثل راحة اليد. وهنا أدرك «ذو الحظ العاثر» أن هذا هو كوخ القندس الأبيض، وعلم أنه عثر على زعيم القنادس في العالم أجمع، لذا وقف ثابتاً لوقت طويل وأخذ يغني الأغنية.

«سرعان ما خرج له قندس ضخم أبيض مثل ثلج الشتاء وسأله: «لماذا تغني هذه الأغنية يا أخي؟ ماذا تريد مني؟ لم أسمع رجلاً يغني هذه الأغنية من قبل. لابد من أنك تمر بمشكلة ما».

أجاب الشاب: «أنا سيئ الحظ. لا أنجح في أي شيء أقوم به. ما من امرأة ترغب في الزواج مني. وحين أخرج للصيد ينكسر قوسي أو يتعطل رمحي. لا أجد علاجاً ولا أستطيع أن أحلم. الناس لا يحبونني ويشفقون علي كأنني طفل نزل به الداء وأعياه المرض».

Twitter: @ketab_n

قال القندس الأبيض: «أشعر بالأسف لحالك، لكن عليك يا أخي أن تجد القيّوط الذي يعرف مكان كوخ الشيخ. وسوف يساعدك إذا أنشدت له هذه الأغنية حين تراه. خذ هذه العصا لأن رحلتك طويلة وسوف تعينك على عبور النهر من دون أن تغرق لو حملتها في يدك طوال الوقت. وهذا ما يمكن أن أقدمه لك».

سافر «ذو الحظّ العاثر» عبر النهر وفي اليوم الرابع وعند غروب الشمس، وجد القيّوط على سفح تل قريب. فنظر إليه وبدأ يغني الأغنية التي تعلمها من العجوز. ولما فرغ من غنائه اقترب منه القيّوط وسأله: «ما الأمر؟ لماذا تنشد هذه الأغنية؟ لم أسمع رجلاً ينشدها من قبل. ماذا تريد مني؟».

حكى «ذو الحظ العاثر» للقيّوط ما قصّه على القندس الأبيض، وأراه العصا التي أعطاه إياها زعيم القنادس ليثبت صحة قوله. وقال: «أشعر بالجوع فلم آكل سوى اللحم المجفف الذي أعطتني العجوز إياه».

قال القيّوط: «انتظر هنا. لقد اصطاد أخي الذئب لتوه ظبياً سميناً وربما يعطيك شيئاً من لحمه حين أقص عليه مشكلتك».

Twitter: @ketab_n

ذهب القيّوط بعيداً ليبحث عن اللحم وما أن ابتعد حتى غسل الشاب قدميه المتعبتين في جدول صغير بارد. وسرعان ما عاد ومعه اللحم، فأوقد الشاب ناراً، وأكل نصيباً من اللحم من دون أن ينتظر أن تسخن لأنه كان يتضور جوعاً. وحين انتهى قال له القيّوط: «الآن أصحبك إلى كوخ الشيخ، تعال معي».

بدأت رحلتهما رغم حلول الظلام.. سافرا في رحلة طويلة بلا توقف، عبر السهول والجبال والغابات والأنهار حتى وصلا إلى كهف منحوت في الصخر على سفح الجبل العملاق.

قال القيّوط: «داخل هذا الكهف سوف تجد الشيخ وسوف ينبئك بما تريد معرفته».

وقف «ذو الحظ العاثر» أمام الكهف طويلاً لأنه كان يشعر بالرهبة، وحين التفت ليتحدث إلى القيّوط، اكتشف أنه رحل وتركه وحيداً. ذهب القيوط ليرعى شؤونه.. وانسحب بهدوء تحت جنح الليل.

بدأ الشاب يتسلل داخل الكهف بهدوء وبطء، يتحسس طريقه في غياهب الظلمة، وقلبه يدق كقرع الطبول «توم، توم» في حلقات الرقص. وأخيراً رأى ناراً موقدة في أقصى الكهف.

Twitter: @ketab_n

تراقصت الظلال على جدران الكهف كأنها أشباح، فنزل به الخوف. لكنه نظر ليرى رجلاً جالساً إلى جوار النار. وكان شعره طويلاً شديد البياض، تركت السنون آثارها وتجاعيدها على وجهه، وكان عاري الجسد في ضوء النيران.

نهض الشاب ببطء ومشى ناحية النار وقلبه يرتعد خوفاً. وحين وصل إلى البقعة التي أضاءتها النار، نظر إليه الشيخ وقال: «أهلا بك أيها الشاب. أنا الشيخ. لماذا أتيت إلى هنا؟ وماذا تريد؟».

حكى «ذو الحظ العاثر» للشيخ ما قاله للعجوز وللقندس والقيّوط وأراه العصا التي أعطاه إياها القندس دليلاً على صدق روايته.

قال الشيخ وهو يمرر الغليون إلى الشاب: «دخن هذا الغليون». وبعد أن دخن كلاهما الغليون قال الشيخ: «سأقول لك ما يجب فعله. على قمة هذا الجبل العظيم تعيش جموع من الأشباح وزعيمهم ذكر البوم العظيم. هذا الذكر هو الوحيد الذي بيده تغيير طالعك. وسوف يوصيك بما تفعل إن تحليت بالشجاعة. خذ هذا السهم واذهب إلى هذه الجموع ولا تخف. أرهم أنك أعزل بمجرد أن تصل إليهم. والآن اذهب!».

Twitter: @ketab_n

خرج «ذو الحظ العاثر» في ظلام الليل وصعد الجبل. وكانت السبيل وعرة، وهبت الرياح من جهة الشمال، فشعر ببرودة شديدة تشل أطرافه وتلسع وجهه، لكنه اتجه ناحية قمة الجبل حيث تهب العواصف ويشتد برد الشتاء. وانتشرت أكوام من الجليد في كل مكان وتجمعت الريح وعصفت به وكأنها غاضبة منه. وتجمعت السحب حوله واشتد الظلام أكثر فأكثر وشعر بأن العالم أصبح خالياً من الناس وإلا أنه توقف فوق قمة الجبل وحاول أن يبصر من خلال السحب. ثم سمع غناء غريباً حوله، لكنه لفترة طويلة لم يرَ من صدر عنه الصوت. وأخيراً انقشعت السحب ورأى دائرة كبيرة يجلس فيها الأشباح ذوو الرؤوس الضخمة القبيحة. كانوا يجلسون على الأرض التي غطتها الثلوج والصخور، ينشدون واحدة من أغنيات الحرب التي ألقت في قلب الشاب الرعب. ووسط هذه الدائرة، جلس زعيمهم «ذكر البوم». حين رأت الأشباح «ذا الحظ العاثر» أسرعت نحوه ملوحة بالرماح لتقتله لولا أن صاح فيها الزعيم: «توقفي».

بسط الشاب ذراعيه وقال: «أنا لا أحمل سلاحاً، اقتربوا لتروا كيف يموت أحد أفراد قبيلة الأقدام السود. لست أخشاكم».

Twitter: @ketab_n

قال الزعيم: «نحن لا نقتل رجلاً أعزل. اجلس يا بني وقل لي ماذا تريد. ولماذا أتيت إلى هنا. يجب أن تدخن الغليون معي».

قصّ «ذو الحظّ العاثر» على زعيم البوم حكايته التي رواها للعجوز والقندس والقيّوط والشيخ وأراه العصا التي أعطاه إياها القندس الأبيض والسهم الذي أعطاه إياه الشيخ كدليل على صدق روايته.

قال كبير البوم: «حسناً. بإمكاني أن أقدم لك المساعدة ولكن أولاً يجب أن تساعد نفسك بنفسك. خذ هذا القوس. إنه قوس للعلاج: الآن لديك قوس لا ينكسر ورمح مستقيم نافذ. والآن انزل هذا الجبل حتى تصل إلى النهر. وسوف يحل الظلام حين تبلغ هذا النهر، لكنك ستعرف طريقك. ستجد شجرة خشب القطن العملاقة على ضفة النهر، وبجوار الشجرة يجب أن ترتحل مع مجرى النهر دون توقف حتى تسمع صوت الماء يقترب منك. حين تسمع صوت الماء، صوّب رمحك ناحية الصوت. صوّبه بسرعة لأنك إن لم تفعل قد لا يواتيك الحظ طوال العمر. ولو فعلت ما قلت لك، تكون قتلت من يصدر صوتاً في الماء. وعندها يجب أن تأخذ جلده وترتديه إلى الأبد. فمن يرتدي هذا الجلد يصبح محظوظاً إلى الأبد.. وسوف يجعلك محظوظاً إلى

Twitter: @ketab_n

الأبد. وهذا ما يجب أن تقوله لأهلك. الآن اذهب فقد اقترب الفجر ويجب أن نخلد إلى النوم».

أخذ الشاب قوسه ورمحه والعصا التي أعطاه إياها القندس وبدأ رحلته. تابع السفر ليل نهار. ووصل أخيراً إلى النهر ليرى على ضفته شجرة خشب القطن العظيمة التي حدّثه عنها الزعيم. وعند الشجرة، اتجه نحو المجرى ووجد طريقه على الضفة بسهولة رغم الظلام. ولم يمر وقت طويل حتى سمع صوت حركة في الماء وساعتها أطلق رمحه ناحية الصوت، وفجأة لم يعد يسمع الصوت. وقف ونظر واستمع، فلم يسمع ولم ير.

ثم سطع القمر خلف السُحُب وبمجرد أن لامس ضوء القمر صفحة الماء، رأى حيوانا ميتاً يطفو على سطح الماء.

مشي الشاب معتمداً على العصا السحرية فوق الماء وأمسك بالحيوان من قوائمه وسحبه إلى الشاطئ. وكان الحيوان ثعلب ماء، فسلخ الشاب جلده في الحال.

وقف ذئب ينتظر، فأعطاه الشاب اللحم عن طيب خاطر، لأنه تذكر اللحم الذي منحه الذئب للقيّوط. وبمجرد أن سلخ الشاب جلد الثعلب رمى الجلد فوق كتفيه وتوجه ناحية بلده،

Twitter: @ketab_n

تغمره السعادة ويكسوه التفاؤل، لكنه خيم في أول مكان مناسب ونام. في تلك الليلة رأى حلماً وتحسنت جميع أموره.

وبعد سفر دام عدة أيام، وصل إلى قبيلته مرة ثانية وأخبرهم بما حدث. أصبح صياداً عظيماً وزعيماً كبيراً. وتزوج أجمل امرأة في القبيلة وكان يحسن معاملتها دوماً، ورُزق منها بأطفال كثر، وذاع صيته كمحارب عظيم».

Twitter: @ketab_n

الشيخ يسرق رداء الشمس

كم يضفي ضوء النار سحراً على الحكايات! وكم يخلق أجواء تتناغم مع المواقف التي يسردها الراوي الحكيم، فتنعكس الظلال حين يكون الحديث عن شيء مخيف، وتضيء حين تدور الأحداث حول شيء جميل، بينما يزيد التعاطف من لظى النار وينقصها، حسبما تمليه أحداثها.

كان النور يملأ الكوخ حين اقتربت منه وسمعت الأطفال يغنون في سعادة، ولكن بمجرد أن دخلت، توقف الغناء وحياني الأطفال بابتسامات خجولة، فحتى أنا لم أكن لأطلب منهم أن يستمروا في الغناء. وكان يجلس بالقرب من «نسر الحرب» هندي عجوز اسمه «الثوب الأحمر» وبمجرد أن جلست قال «نسر الحرب» إن ذلك المسنّ هو ضيف مبجل ينتمي لقبيلة «السيوكس» وصديق قديم له. أشعل «نسر الحرب» غليونه ومرره لضيفه الذي مرره إليّ بعد أن قدمه أولاً إلى الأب الشمس وإلى الأرض، أم الموجودات جميعاً. وفي كوخ الأقدام السود،

Twitter: @ketab_n

لابد ألا يمر الغليون بمدخل الكوخ. ولو حدث ذلك لكانت إهانة لصاحب الكوخ ويجلب سوء الحظ لكل الحاضرين. لذا لو كان هناك عدد كبير من الضيوف منتشرين في أنحاء الكوخ، فإن الغليون يمر من ضيف إلى التالي من يسار صاحب الكوخ حتى يصل إلى الباب، ثم يعود لصاحب الكوخ من دون أن يمر على أحد ليدخنه مرة ثانية، حتى يعيد صاحب الكوخ ملأه بالتبغ وتمريره جهة اليمين.

أوضح «نسر الحرب» لـ «الرداء الأحمر» سبب وجودي باختصار.

ثم قال: «في يوم من الأيام صنعت الشمس[1] رداء[2] لزوجها القمر. ولم ير أحد من قبل مثل هذه الصنعة الجميلة، وكان ذلك الرداء مصنوعاً من ريش الشيهم الملون ومغطى بعلامات غريبة لا يفهمها سوى الشمس والقمر. لم يرَ أحد مثل هذا الرداء من قبل وقد استغرق القمر في صناعته عدة أعوام. وكان رداءً رائعاً وكان الزوج يرتديه في الجو الصحو لزهو مظهره.

(1) في الأصل هو القمر، حيث أن القمر هو الزوجة والشمس هي الزوج، لكن بسبب الفارق اللغوي مع العربية حيث الشمس مؤنثة والقمر مذكر فقد بدلنا الدورين في الترجمة (م).

(2) في الأصل طماق أي كساء للساق (م).

Twitter: @ketab_n

في كل نهار حين كان القمر يخلد إلى النوم في كوخه في الغرب كان يستخدم الرداء كوسادة، حيث كان هناك لص في العالم في ذلك الوقت. ولم يكن ذلك اللص سوى الشيخ وبالطبع كان القمر يعرف كل شيء عنه. لهذا فإنه كان يضع رداءه الجميل تحت رأسه حين يغط في النوم، ويرتديه دائماً حين يذهب للعمل حتى لا يضيع أثناء الليل، لكن حرص القمر على الرداء كان يشتد ويزداد عندما يحل الفجر ويأوي إلى فراشه.

ولم يدر بخلد القمر أن أحداً قد يحمله غباؤه على التفكير في سرقة الرداء. لكن في أحد الصباحات، تسلل الشيخ، وهو الشخص الوحيد الذي يعرف مكان كوخ القمر، واقترب لينظر داخل الكوخ. فرأى الرداء تحت رأس القمر.

لقد سافرنا كثيراً ولم يستطع أحد منا أن يجد كوخ القمر. لا أحد يدري في أي بلد يكون. وكان الشيخ يعرف كل شيء، إلا أنه لا يقوى على خداع القمر.

نظر الشيخ في كوخ القمر ورأى الرداء كما رأى القمر وقد خلد إلى النوم، فقرر أن يسرق الرداء وزحف ببطء عبر باب الكوخ.

Twitter: @ketab_n

ولم يكن أحد بالمنزل سوى القمر ذلك أن الشمس قد خرجت إلى العمل، وظن أنه يستطيع سرقة الرداء من تحت رأس القمر النائم، ثم يلوذ بالفرار.

زحف على يديه وركبتيه كالدب وتسلل إلى داخل الكوخ، لكنه وضع ركبته على عصا بالقرب من فراش القمر. تحركت العصا تحت ثقله مطلقة صوتاً شديداً جعل القمر يستدير ويصدر شخيراً أرهب الشيخ بشدة، فوقف بلا حراك لمدة دقيقة. ولم يكن قلبه قوياً لأن الشر يُضعف القلب، وبعدما تأكد أن القمر لم يره تسلل بهدوء خارج الكوخ ولاذ بالهرب.

فوق أحد التلال وقف الشيخ ينظر ويسمع ولكن لم يكن هناك سوى سكون تام فجلس وغرق في تفكير عميق.

قال لنفسه: «سأسرق الرداء في فجر الغد حين ينام القمر مرة ثانية. إني بحاجة إلى هذا الرداء وسوف آتي به لأنه سيجعلني جميلاً كالقمر».

شاهد القمر وهو يعود للمخيم وشاهد الشمس وهي تخرج للعمل، فلم يذهب بعيداً لأنه أراد أن يكون قريباً من الكوخ حين يحل الفجر مرة أخرى.

Twitter: @ketab_n

ولم يكن طول الانتظار أمراً يهم الشيخ فلم يكن لديه عمل سوى التفكير في أفعاله الشريرة، فلا يهتم بالوقت إلا من لديه عمل يُنجزه. وكان قريباً من الكوخ وقت خروج الشمس، فوقف ينتظر دخول القمر. ومن بين الأشجار رأى الشيخ القمر يخلع رداءه وبريق الطمع في عينيه، وهو يراه يضع الرداء تحت رأسه كما يفعل دائماً. ثم انتظر برهة قبل أن يقترب بخسة من الكوخ تدريجياً حتى أصبح رأسه داخل الباب. ثم انتظر طويلاً حتى غط القمر في نوم عميق.

كان يدرك أنه مقدم على فعل شرير، ولما صرخ طائر فوق بحيرة قريبة ارتعد من البرد، بيد أنه تسلل في النهاية إلى جوار القمر الغارق في النوم. تحسست أصابعه الرداء بحرص حتى توصل لأفضل طريقة لأخذه دون أن يوقظ القمر. تلاحقت أنفاسه وكان قلبه يخفق في عتمة الكوخ بقوة، وكأنه طبول الحرب. وكان عرق الخوف البارد يتصبب من جسده، وفكر للحظة أن ينتظر فجراً آخر، لكن طمعه ألح عليه حتى سرق الرداء من تحت رأس القمر.

وتسلل خارج الكوخ في حذر وحيطة، بينما ينظر خلفه وهو يخرج من الباب. ثم ركض مبتعداً بأقصى سرعة.

Twitter: @ketab_n

ركض ناحية الشرق عابراً التلال والوديان والأنهار، وهو يضحك مزهواً بذكائه، لكنه سرعان ما أدركه التعب.

قال لنفسه: «لقد ابتعدت بما فيه الكفاية وسوف أنام لبعض الوقت. يا له من أمر سهل أن أسرق من القمر كما أسرق من الدب أو القندس».

وضع الرداء تحت رأسه كما كان يفعل القمر وخلد إلى النوم. ورأى في منامه حلماً أيقظه وأفزعه. فالأفعال الشريرة تصيبنا بالكوابيس. فنهض ليجد القمر أمامه يحدّق في عينيه مباشرة ويضحك. فشعر الشيخ بالخوف وأخذ يجري تاركاً الرداء وراءه.

ارتدى القمر الرداء وضحك وهو يمضي لأنه مشغول دوماً. وظن القمر أنه لن يرى الشيخ ثانية، لكن درساً واحداً لا يكفي كي يعرف الغبي الحكمة، فقد اختبأ الشيخ بين الأشجار حتى غاب القمر عن ناظريه. وركض متجهاً إلى الغرب واختبأ في كوخ القمر مرة ثانية وهو يعتزم انتظار حلول الفجر كي يسرق الرداء مرة أخرى.

Twitter: @ketab_n

كان في غاية الخوف هذه المرة، لكن بمجرد أن خلد القمر إلى النوم تسلل الشيخ إلى داخل الكوخ، وتوقف هذه المرة ينظر، لأنه خاف أن يصل صوت دقات قلبه إلى مسامع القمر. وأخيراً اتجه صوب فراش القمر وفي تلك اللحظة طارت بومة بيضاء ضخمة في أحد جوانب الكوخ، فنزل به خوف شديد، فذلك فأل سيء. لكنه ظل يقترب حتى كاد يلمس القمر.

انتشرت في أنحاء الكوخ رسوم جميلة، خطّتها الشمس ولونتها، ورسمت عليها نقوشاً غريبة أشاعت الخوف في قلب الشيخ الذي سمع صوت طائر ليلي ينادي بالخارج، فظن أنه سيوقظ القمر، وأسرع نحو الفراش وسرق الرداء بأصابع خفيفة مثلما فعل الليلة الماضية من دون أن يوقظ القمر. ثم تسلل خارج الكوخ وهو يتحدث بشجاعة لنفسه مثلما يفعل الجبناء حين يحاصرهم الخوف.

قال لنفسه: «الآن سوف أركض أسرع من ذي قبل. لن أتوقف أثناء النهار وسأبقى في الجبل طوال الوقت والقمر في عمله».

رحل بعيداً- وهو يركض كالجاموس- ولم يكن يرى أو يسمع أي شيئ ولم يتوقف لأي سبب.

Twitter: @ketab_n

وحين حل الليل كان قد ابتعد تماماً عن كوخ القمر، واختبأ في أجمة كثيفة. أخذ يستمع طويلاً قبل أن تواتيه الشجاعة ليخلد إلى النوم. شعر بالتعب من الركض ونام عميقاً، وحين فتح عينيه وجد القمر أمامه يحدّق في عينيه مباشرة وعلى وجهه عبوس شديد. همّ الشيخ بالجري، غير أن القمر أمسك به وألقاه على ظهره. وقال له في ثورة غضبه: «أيها الشيخ أنت لص محترف، لكنك غبي في الوقت ذاته، لأنك تسرق مني وتتخيل أن بإمكانك الغياب عن عيني. لقد سرقت ردائي الذي صنعته زوجتي مرتين ووجدتك بسهولة في المرتين. ألا تعلم أن العالم كله هو كوخي وأنك لن تستطيع أن تخرج منه حتى لو ركضت طوال حياتك؟ ألا تعلم أني أضيء كوخي كل يوم وأفتشه بحرص شديد وعناية؟ ألا تعرف أنه ليس بإمكان أي شيء أن يغيب عني ما دام على قيد الحياة؟ لن أؤذيك هذه المرة، لكنني أحذرك الآن من أنك لو حاولت سرقتي مرة ثانية، فسوف أنزل بك شديد العقاب. والآن اذهب ولا تدعني أراك تسرق مرة ثانية!».

رحل الشيخ بعيداً وواصل القمر مسيره ليواصل عمله.

والآن يا أطفالي اخلدوا إلى النوم لأني سأتحدّث إلى صديقي عن أمور أخرى حول الحرب التي يعرف كلانا عنها الكثير».

Twitter: @ketab_n

ضمير الشيخ

وعلى مقربة من القرية، تقوم جبال شامخة تشق الأنهار التي وُلدت هناك والتي تهب مياهها لمحيطات الأطلسي والهادئ والقطبي الشمالي. ويعتقد الهنود أن الرياح تولد في هذه الجبال، وأنها تتصارع من أجل السيادة في ممر «جان سايت». لقد سمعت قصة قديمة يُقال إن قبيلة «الأقدام السود» تعتقد فيها بشدة، وتحكي عن ثور يعيش في ممر «غان سايت» ويفرض سيطرته على الريح. ويخلق الثور الرياح الشمالية بحركة من أذنيه والرياح الجنوبية بحركة أخرى. وأنا أعتقد أن الرياح تتكون في هذا الممر، لأنها نادراً ما تتوقف خاصة في هذا الوقت من العام.

كانت الرياح تهب من جهة الشمال هذه الليلة وكادت السحب البيضاء تغطي البدر المكتمل وتحجب ضوءه. وأخذت الرياح تصفر في جنبات الأكواخ، وتتلاعب بالنار الموقدة في الأكواخ حتى أطفأتها.

Twitter: @ketab_n

انتظرنا «نسر الحرب» داخل الكوخ وحين دخلنا، ألقى علينا تحية حارة من دون أن يذكر العاصفة، وقال: «انتظرتكم طويلاً وقد تأخر الوقت، والقصة التي سأتلوها عليكم الليلة أطول بكثير مما سواها»، وبدأ يقص القصة على الفور.

«ذات مرة، مر الشيخ بكوخ في الغابة، وكان كوخاً جميلاً ممهوراً بنقوش غريبة، ويتصاعد الدخان من مدخنته، ومن ثم عرف أن صاحب الكوخ موجود بداخله. ومن دون أن ينادي أو يتكلم، دخل إلى الكوخ ورأى رجلاً يجلس بالقرب من النار يدخن غليونه. إلا أن الرجل لم يتحدث إليه ولم يعرض عليه الغليون مثلما يفعل قومنا حين يفرحون لرؤية زائر. بل لم ينظر إلى ضيفه لكن الشيخ لم يكن دمث الخلق، ولم يلاحظ أنه غير مرحّب به، بل أخذ يجيل نظره في أنحاء الكوخ. وكانت الرسوم جميلة وملونة بمهارة فائقة، وكان الكوخ نظيفاً تضيء النار بين جوانبه، وقد خلا من أي امرأة.

جلس الشيخ مسنداً ظهره إلى مسند جميل وملأ غليونه وأشعله. ثم بدأ يدخن وينظر حوله ويتساءل عن سبب تصرفات الرجل الغريبة. فرأى نجمة شع ضوؤها من فتحة المدخنة ورأى امرأة فوق إحدى الأشجار التي تعلو الكوخ، وبدت فتية وجميلة وطويلة.

Twitter: @ketab_n

سأل الشيخ: «من هذه المرأة الجالسة فوق قمة الشجرة؟».

أجاب الرجل: «هي زوجتك إن أفلحت في اللحاق بها، لكن عليك أن تسكن هنا وتساعدني على كسب رزقي أولاً».

فقال الشيخ: «سوف أمسك بها وأتزوجها وأعيش هنا. فأنا صياد ماهر وأقدر على تأمين ما يكفي من الطعام لك».

خرج من الكوخ وتسلق الشجرة وراء السيدة التي ظلت تصرخ، لكنه أمسك بها بعد أن أخذت تخدشه بعنف. حملها الشيخ إلى داخل الكوخ، وجدد عهده بأن يظل هناك إلى الأبد. وزوّج الرجلُ الشيخ من المرأة وعاشا في سعادة أربعة أيام. وفي اليوم الخامس، هرب الشيخ وسرق كل اللحم المجفف الموجود في الكوخ.

وحين تأكدا أن الوغد هرب بدأت المرأة تبكي. لكن الرجل لم يبك، وكان هناك ثلج على الأرض. فاقتفى الرجل أثر الشيخ وهو عازم على الإمساك به وقتله.

كان الأثر واضحاً وبدأ الرجل في العدو لأنه صياد ماهر وسريع كالظباء. بالطبع تفوق على الشيخ الذي لم يكن سريع العدو. ومع انتصاف النهار، توقف اللص ونظر خلفه على قمة التل. فرأى الرجل يأتي مسرعاً.

Twitter: @ketab_n

قال لنفسه: «هذا لن يُجدي نفعاً. هذا الشخص الغريب سوف يمسك بي. سوف أحوّل نفسي إلى ثور ميت واستلقي هنا. ساعتها سوف يمر من دون أن يراني وأستطيع بعدها أن أذهب إلى أي مكان».

خلع حذاءه وقال له: «أيها الحذاء اذهب في اتجاه الغرب. واترك أثراً واضحاً في الثلج باتجاه المياه العظيمة حيث تغرب الشمس. وسوف يتبعك ذلك الرجل الغريب، وحين تخرج من البلاد المغمورة بالثلوج، سيكون قد فقد أثرك. اذهب بسرعة لأنه قريب منا».

جرى الحذاء بسرعة كما أمره الشيخ وترك آثاراً واضحة وسط الجليد وفي اتجاه المياه الواسعة. تحول الشيخ إلى ثور ميت وتمدد بالقرب من الأثر الذي تركه الحذاء.

صعد الرجل التل وهو يلهث من أثر الجري. رأى الثور الميت وظن أنه قد يكون الشيخ يمارس إحدى حيله. وأوشك أن يقذف الثور بسهم ليتأكد من أنه جثة، ولكن قبل أن يطلق السهم رأى الأثر الذي تركه الحذاء. فظن أن الشيخ هو صاحب أثر الحذاء، وأن هذه الجثة هي جثة ثور ميت بالفعل. انطلت عليه الخدعة وعاد لاقتفاء الأثر. ومضى الرجل في طريقه يقتفي أثر الحذاء

Twitter: @ketab_n

فوق الجبال والتلال. ركض الرجل أسرع من ذي قبل مثلما أسرع الحذاء، وأخذ أثره يقل وضوحاً مع حلول الظلام. وظل الرجل يطارد الأثر ليلاً نهاراً من دون أن يتوقف للراحة أو للأكل ثم وصل إلى شاطئ البحر الكبير مع بزوغ النهار.

وهناك على الضفة وقف زوج الحذاء الفارغ. استدار الرجل ونظر بعينين حمراوين، ورجلاه ترتجفان. وسمع نعيق الغراب: «كاو...كاو...كاو»، ورأى الطائر الأسود فوق رأسه مباشرة وتعرّف عليه.

قال: «أيها الشيخ لقد كنت مختبئاً داخل جلد الثور الميت، وخدعتني وصرت الآن غراباً. أتعتقد أنك ستهرب مني؟ لا لن تستطيع. فأنا أجيد السحر وأجيد الدهاء».

فأمسك الرجل بعصا، ورسم دائرة على الرمل. ثم وقف داخل الحفرة وغنى أغنية. كان الشيخ قلقاً وهو يشاهد تلك التصرفات الغريبة. وبدأ الرجل يدور بسرعة داخل الدائرة حتى اختفى وظهر نسر بدلاً منه. وحلّق النسر مباشرة نحو الغراب الذي ولّى مسرعا نحو الجبال يملؤه الخوف والهلع.

Twitter: @ketab_n

عرف الغراب أن النسر سيمسك به. فما إن وصل إلى الأشجار فوق الجبال حتى حول نفسه إلى طائر النمنمة، واختبأ في شجيرات صغيرة تنبتُ أسفل الأشجار الطويلة. ورأى النسرُ ذلك التحول، فبدأ على الفور في الدوران بشكل متكرر في الهواء. وعند وصوله إلى الأرض، تحول النسر إلى صقرٍ باشق ليطارد طائر النمنمة. صارت المطاردة سريعة، ولم يعد لطائر النمنمة مكان يختبئ فيه من الباشق. وطار طائر النمنمة يطارده الصقر مطاردة الظل لصاحبه في الشجيرات وبين الأشجار وبين الحشائش والأعشاب. وتمكن الباشق من التقاط ريشة من ذيل طائر النمنمة، فقد اقترب جداً من ضحيته. وكاد طائر النمنمة أن يلقى حتفه، لولا أنه وصل فجأة إلى متنزه بمحاذاة إحدى ضفاف الأنهار، حيث توجد مئة من أكواخ عشيرتنا، وكانت ابنة الزعيم تجلس أمام كوخ جميل. كان الظلام يلف المكان والطقس بارداً، لكنها ظلت جالسة تحدّق في النهر.

كان طائر الباشق يضرب النمنمة بمنقاره ومخالبه، وحينما رأى النمنمة الفتاة اندفع نحوها. وطار بسرعة شديدة فلم تلحظه الفتاة على الإطلاق، لكنها شعرت بشيء يضرب يدها، فأسرعت ونظرت إلى أصبعها فوجدت فيه خاتمًا من العظم. فأصابها

Twitter: @ketab_n

الهلع، وأسرعت إلى داخل الكوخ، الذي منعت النار الموقدة داخله دخول الظل. لقد تحول الشيخ إلى خاتم بالطبع، ولم يجرؤ الباشق على دخول الكوخ، واكتفى بالوقوف خارجه يسترق السمع لما يقوله الشيخ. وهذا ما وصل لسمعه من كلامه: «لا تخافي يا فتاتي، ولا تفزعي فأنا لست نمنمة ولست خاتماً. إنما أنا رجل شيخ طاردني ذاك الباشق طوال اليوم من دون سبب. ولم ألحق به أي أذى حتى يضايقني بغير جريرة أو داع».

فصاح الباشق وقال: «أنت كاذب ومنافق. لا تصدقيه أيتها الفتاة، فقد ارتكب جرماً. إنه مخادع وأنا لست طائر باشق، إنما أنا الضمير، أسافر مثل السهم ولا أحيد ولا أبطئ. فعندما يسرق من قومه أو يكذب عليهم أطارده. وأتحدث معه طوال الوقت ويسمعني، لكنه يكذب على نفسه ويقول إنه لا يسمع. أتدرين من أنا أيتها الفتاة؟ أنا الصوت الناطق داخل كل إنسان».

سمع الشيخ ما قاله الباشق، وشعر بالخجل لأول مرة في حياته. وجرّ رجليه إلى خارج الكوخ، ليلفه الظلام في فراره نحو ظلام الليل هرباً من نفسه.

Twitter: @ketab_n

وقال «نسر الحرب» وهو يمسك غليونه: «كما ترون فقد أدرك الشيخ أنه ارتكب خطأ وعذبه قلبه مثلما ستعذبكم قلوبكم ما لم تستمعوا إلى الصوت الذي يناديكم من داخل أنفسكم. فعندما يقول ذلك الصوت إن أمراً ما «شر»، يكون شراً فعلاً، رغماً عن أي إنسان آخر يراه غير كذلك. فمن الصعب أن يخدع الإنسان نفسه».

Twitter: @ketab_n

خيانة الشيخ

في اليوم التالي بعد الظهر، ذهب «فأر المسك» و«القوس الجميل» في رحلة صيد. فاختبآ وسط بعض الشجيرات التي نبتت على جانب درب قديمة بمحاذاة النهر في انتظار مرور غزال شارد.

وكان القرقف يرقص ويغني «تشيكا دي دي دي» وسط شجر الصفصاف وشجيرات الورد البري التي نمت قرب مكان اختبائهم، وكانت الطيور الصغيرة الرقيقة ذات الريش البديع كثيراً ما تقف على بعد بوصة واحدة من الصيادين الصغيرين، اللذَيْنِ وقفا في صمتٍ تام يتأملان بإعجابٍ هؤلاء الأصدقاء الصغار، وعكست نظرة أو ابتسامة تقديرهم لتبادل الطيور الزيارات فيما بينها.

كانت الريح تهب أسفل المجرى ولم تَتحول أعين الولدين عن الممر في هذا الاتجاه، فمن هذا الاتجاه لن يتسبب النسيم المتواصل في تحذير الغزال المقترب.

Twitter: @ketab_n

وجاء أرنب يحجل أسفل الممر، ظنًا منه أنه في مأمن، مر قريبًا جداً من «القوس الجميل» فلم يستطع مقاومة رغبته في أن يرميه بسهم. وعلا صوت الولدين حين حاولا كتم ضحكهما، بسبب المفاجأة والسرعة اللتين أظهرهما الأرنب الذي يغمره الفزع والخوف، وهو يُهرع عند منحنى في الممر، يتمايل ذيله المكتنز الأبيض بسرعة.

وما كادا يعودان لاتزانهما وإلى الصمت، حتى انطلق صوت مفاجئ من عصًا جافة، بث الذعر في قلبي الولدين، فنزل بهما في الحال خوف من أن تسقط ورقة على الأرض أو أن تميل شجيرة، أو لا يمر طائر من دون أن تلحظه عيونهم الأربعة الحادة، التي تحدق من خلال الشجيرة، في الاتجاه الذي حدده صوت العصا المنكسرة.

كان قلباهما يدقان بصوت عال ووضع «القوس الجميل» السهم على وتر القوس.

وانتظرا في ترقب وتوتر، وبالفعل أتى غزال يجري في الممر بسرعة وانتباه. فهو الممر الذي كان يمر منه كثيراً، وهو على دراية جيدة به. وقد كان يتبع أمه في هذه السبيل الوعرة وهو ظبي صغير. أما الآن فقد بات له قرنان، وأصبح مستقلاً بذاته. وعندما

Twitter: @ketab_n

اقترب من الشجيرات- التي يختبئ فيها الصيادان- رافعًا رأسه الجميل إلى أعلى في الهواء، توقف واستدار قليلاً.

وانطلق السهم فجأة، وأصاب الغزال الذي ولى هارباً يشق أشجار الصفصاف و«جارة الماء» التي نمت في طريقه حتى توارى عن الأنظار. ثم انطبع السكون على كل شي فيما عدا نغمات: «تشيكا دي دي دي، تشيكا دي دي دي»، التي أصدرتها الشجيرات المحيطة بهم دونما انقطاع.

وخرج الصيادان من مخبئهما، وسارا في الطريق الوعر - والسهم في وتره مستعد للانطلاق- حيث انتشرت آثار دماء على جذوع الأشجار، وآثار دماء أخرى على بضع أوراق جافة. فقد أصاب السهم هدفه، وينبغي عليهما اقتفاؤه ببطء، كي لا يفقدا اللحم.

ظلا لمدة ساعتين يتبعان الحيوان المصاب، وعثرا عليه أخيراً في أيكة من الصفصاف، حيث كان الغزال يحتضر بفعل السهم الطاعن في أحشائه. وأجهز عليه سهم آخر، فتكللت المطاردة بالنجاح.

وزين الصبيان الظبي بسكاكينهم ثم عادا إلى معسكرهما ليخبرا النساء عن مكان العثور على اللحم كما يفعل الرجال

Twitter: @ketab_n

تماماً. وكان أول غزال يصطادانه فتلألأت علامات الفخر على وجهيهما وهما يخبران جدهما في تلك الليلة داخل الكوخ.

وبعد أن فرغ الصبيان من سرد قصة نجاحهما، رد «نسر الحرب» وقال: «جيد، إذا كانت أمكما في حاجة إلى لحم، ولكن الخطأ أن تقتل عندما يكون لديك كثير من اللحم، حتى لا يغضب المانيتو. فدائماً هناك ما يكفي، إنما بغير إسراف. فالصياد الذي يقتل أكثر مما يحتاج إليه هو صياد شرير. وسأخبركما الليلة بما حدث للشيخ عندما فعل مثل ذلك. فقد لحقت به المتاعب والنوازل.

ففي أحد أيام الخريف، عندما كانت الأوراق صفراء اللون، وجموع الغزلان ترتدي أرديتها الزرقاء– وجموع البط والإوز تسافر إلى الريف، حيث لا يتجمد الماء، ولا تموت الزهور، كان الشيخ يتنقل عبر السهول. ورأى قرب حلول الغروب ثورين يأكلان على سفح تل، ولم يكن معه قوس أو سهم. وكان يتضور جوعاً، فبدأ يفكر في طريقة لقتل أحد الثورين والحصول على لحمه. ولأن المكر غالب في طبعه، فقد أعد خطة في ثوان معدودات، فجرى حول التل وغاب عن نظر الثيران، ومكث يصنع دميتين على هيئة رجلين من العشب

Twitter: @ketab_n

ونبات الميرمية. وجعلهما تبدوان رجلين حقيقيين، ثم سلّح كل واحد منهما بسكين خشبي طويل جداً. وجهّزهما في وضع القتال وكأنهما على وشك التقاتل مع بعضهما. وعندما ثبتهما على هذا الوضع قفل عائداً إلى موضع الثورين وصاح بهما: «يا أخوي.. انظرا ولا تهربا، هناك رجلان رائعان على الجانب الآخر من هذا التل لكنهما يتشاجران، وسيقتل واحدهما الآخر، ما لم نمنعهما. وأنتما السبب في هذا القتال. فقد زعم أحدهما أنكما بدينان سمينان، وقال الآخر إنكما هزيلان نحيفان. لا تتركا الأخوين يتقاتلان على شيء تافه. فالعاقبة خطيرة. وأنا أستطيع أن أحسم هذا الأمر، إذا سمحتما لي أن أتحسس جسديكما كي أعرف إن كنتما بدينين أم هزيلين، ثم أرجع إلى الرجلين وأنهي المشكلة بأن أخبرهما الحقيقة. والآن لا تتحركا واتركاني أتحسس بطنيكما سريعاً حتى لا ينشب القتال وأنا بعيد عنهما».

قال الثوران: «نوافق على ذلك بشرط ألا تزكزكنا».

ثم اقترب الشيخ وبدأ يتحسس بطني الثورين وكان يُضمر شراً وسوء طوية. واستل من ردائه سكينه الكبير، وتحسس بدهاء حتى عثر على مكان القلب وأغمد السكين بأكمله فيه.

Twitter: @ketab_n

مات الثوران في الحال وفرح الشيخ بالحيلة التي انطلت عليهما. ثم أعطى السكينين إلى يديه وقال: «هيا اذهبا للعمل واسلخا الثورين وسأجلس هنا لأرشدكما».

بدأت يداه في سلخ الثورين، غير أن يده اليمنى كانت أسرع وتغلبت على اليسرى، فاستشاطت اليسرى غضباً. وشتمت اليسرى اليمنى وقالت لها «يا كلبة». وهذا كما تعرفون هو أسوأ شيء يمكن أن تسب به شخصاً في لغتنا، وهو ما جعل اليمنى تستشيط غضباً فطعنت اليسرى، وبدأتا في قتال عنيف.

أصيبت كلتاهما بجروح حتى غطى الدم الثورين اللذين كانتا تسلخانهما. وتألم الشيخ بشدة من هذا القتال، وأخذ ينتحب كالنساء. فتوقف القتال، لكنه ظل يبكي حتى أبصر، وهو يكفكف دموعه «ثعلباً أحمرَ» يجلس قرب الثيران، يراقبه.

قال الشيخ: «اذهب من هنا! إذا كنت تريد لحماً اذهب، واصطد أنت كما فعلت أنا».

فضحك الثعلب الأحمر: «ها ها ها، عجوز أحمق».

Twitter: @ketab_n

قال ذلك ثم ولى.. وأخبر الثعالب الأخرى والذئاب والقيّوط عن لحم الشيخ. أخبرهم أن يدي الشيخ تتشاجران، ويسهل سرقة اللحم منه.

وعادوا مجتمعين مع الثعلب الأحمر إلى مكان الشيخ، ومكثوا هناك حتى أجهزوا على اللحم كله ولم يتبق سوى العظم.

ولم يستطع الشيخ أن يمنعهم، لأنه مصاب، لكن كل الخطأ عائد للكذب وللحصول على لحم أكثر مما نحتاج إليه. فقد وقع في الكذب وهذا خطأ، ووصل الأمر إلى أن تشاجرت يداه مع بعضهما والشجار بين أفراد العائلة مذموم للغاية. والدرس الذي نتعلمه هو ألا نكذب وألا نتشاجر. فذلك من سوء الطباع».

Twitter: @ketab_n

لماذا تبدو أجنحة «صقر الليل» جميلة

أيقظني صوت منادي المخيّم الذي أبلغني رسالته رغم ظلمة المكان.

كان على المخيم أن يتحرك. وكان على الجميع الذهاب إلى مصب نهر ماريا– «النهر الذي يوبخ النهر الآخر»– هكذا يسمي الهنود هذا الجدول الذي يتسبب في هياج مياه «ميسوري» بسرعة فيضانه.

وفي المعسكر اعتلى المنادي جواده، وتوهجت وراءه نيران الأكواخ استجابة للنداء. فدبت الحركة في أنحاء القرية، وعرفت من صوت مئات الحوافر أن الخيول قد جاءت إلى المعسكر، وربطت الأصيلة منها من أجل الرحلة. توهجت النيران في الظلام الآخذ في التبدّد، فأصبحت الأكواخ تظهر كأن يد ساحر قد مستها. وقبل أن تشرق الشمس لتنشر النور على الدنيا، كنا في طريقنا إلى «النهر الذي يوبخ النهر الآخر». كانت السماء صافية والريح ساكنة، فأشرقت الشمس ونثرت على السهول وقمم

Twitter: @ketab_n

التلال ضياءها الذي يبعث السرور في جميع الكائنات البرية. فترى أرنباً يجري هنا وهناك، تتبعه دائما ثلة من الكلاب تتمكّن منه أحياناً، فتلتهمه في الحال. وكانت قطعان من الظبيان الرشيقة تتقافز في طريقنا، وتقف فوق ربوة تشاهد بعيون يملؤها الفضول ذياك الموكب الغريب، ورأينا في المدى سحابة من الغبار تركها قطيع الثيران المتحرك.

مر اليوم وكان المشهد يتغير باستمرار طوال سفرنا. كانت الذئاب والقيّوط تنظر إلينا من قمة كل ربوة وتل، والدجاجات تتسلل بحثا عن مخبأ وسط الأجمات، على بعد عشرة أقدام من خيولنا اليافعة. ومع اقتراب ساعة الغروب، وصلنا إلى بستان قطن، قرب مصب نهر مثاريا، وسرعان ما بنيت الأكواخ. ولم نلبث طويلاً حتى وجدنا الدخان ينبعث من مداخن الأكواخ المئة كأنها قد شيدت منذ زمن بعيد، وسوف تبقى إلى الأبد.

وبمجرد أن انتهينا من العشاء، التقيت الأطفال وبدأنا في البحث عن كوخ «نسر الحرب»، الذي كان حسن المزاج وأصر على أن يدخن غليونين قبل أن يبدأ في سرد قصته، فقال أخيراً:

«سأحكي لكم الليلة لماذا يرتدي صقر الليل ملابس جميلة، فقد أخبرني جدي عن هذا عندما كنت يافعاً. وأنا متأكد أنكم

Twitter: @ketab_n

رأيتم صقر الليل يطير فوقكم ويصدر ضوضاءه الغريبة. وبالطبع هناك سبب لهذا.

كان الشيخ مرتحلاً ذات يوم من أيام الربيع، وكان الجو جميلاً في ذلك الوقت من العام. وأخذ يتوقف كثيراً كي يتحدث إلى الطيور وإلى الحيوانات، لأن روح الدعابة كانت تحضره في ذلك اليوم. تحدث بلطف إلى الأشجار، فصار قلبه ليناً رقيقاً. وراودته خواطر جميلة جعلته سعيداً. حتى حلّ به التعب، فجلس على حجر كبير مستدير من ذلك النوع من الحجارة التي يسميه صديقنا الأبيض صخوراً. واستراح لفترة من الوقت، لكن الحجر كان بارداً وتسللت إليه برودته من خلال ثيابه، فقال: «أيها الحجر تبدو بارداً اليوم. لك أن تأخذ ثوبي. فعندي المئات من الأثواب في مخيمي ولا أحتاج لهذا على الإطلاق»، وكانت هذه كذبة، لأنه لم يكن يمتلك الكثير من الأثواب، بل لم يكن يملك سوى ما يرتديه.

ونشر ثوبه فوق الحجر، ثم بدأ ينزل من التل وهو عارٍ لأن الجو كان لطيفاً في ذلك اليوم. ولكن العواصف كانت مختبئة في الجبال ولم تكن مستبعدة في هذا الوقت من فصل الربيع. بل بدأت تمطر ثلجاً، وهبت ريح الشَمَال بقوة تطارده. فقال

Twitter: @ketab_n

الشيخ: «أعتقد أنني أحتاج إلى هذا الثوب لنفسي. وعلى أي حال لم يفعل ذلك الحجر أي شيء من أجلي، ولا أحد يعامل الحجر معاملة حسنة. سأرجع وأحصل على ثوبي».

فعاد إلى الحجر. وأخذ الثوب ولفه على جسده، مما جعل الحجر يغضب. ثم شرع الشيخ في النزول من التل، فطارده الحجر. وكانت المطاردة بينهما مثيرة للضحك: فوق العشب، والأحجار الصغيرة، وعلى جذوع الأشجار الملقاة في طريقيهما، لكن الشيخ تمكن من البقاء متقدماً عليه إلى أن جرح إصبع قدمه في أجمة ميرمية كبيرة، ووقع على الأرض.

فصاح الحجر: «ها قد تمكنت منك».

«سأقتلك الآن وسأعلمك كيف تعطي الهدايا ثم تستعيدها مرة أخرى». وتدحرج الحجر مباشرة فوق الشيخ وجثم على ظهره.

وكان حجراً كبيراً، فلم يستطع الرجل الشيخ زحزحته. تلوى وتقلب بلا فائدة، فقد جثم عليه الحجر بسرعة. فأخذ يشتمه ونعته ببعض الأسماء السيئة. لكن هذا لم يفلح وأخيراً

Twitter: @ketab_n

بدأ في الصراخ: «النجدة.. النجدة.. النجدة!»، إلا أن أحداً لم يسمع سوى «صقر الليل» الذي قال للشيخ إنه سيساعده قدر المستطاع. ثم حلق حتى عانق السحاب وبدا مثل البقعة السوداء. ثم هبط بشكل رأسي وضرب هذا الحجر ضربة موجعة فانشق نصفين. كانت الضربة عنيفة إلى حدّ أن منقار صقر الليل تلف للأبد، وبدا غريب الشكل، وانكسر رأسه حتى إنه أصبح غريبة الشكل كذلك. لكنه كسر الحجر، فوقف الشيخ وقال: «شكراً لك يا أخي صقر الليل. سأرد لك الجميل الآن وسأجعلك مميزاً عن الطيور الأخرى، حتى يتعرفك الناس دوماً.

وكما تعرفون عندما ينكسر حجر يكون لون مسحوق الحجر أبيض كلون الثلج، ودائماً ما نجد شيئاً من المسحوق الأبيض كلما انكسر حجر.

أخذ الشيخ بعضاً من مسحوق الحجر الرقيق، ورشه على جناحي «صقر الليل» فتكونت بقع وخطوط، هي تلك الخطوط البيضاء الرائعة التي ترونها على جناحيه، وقال له إنه لا يوجد لدى أي طائر آخر مثل هذه العلامات على ردائه.

Twitter: @ketab_n

ويرتدي كل أطفال صقر الليل الرداء نفسه الآن وسيظلون كذلك ما داموا من صقور الليل. وبالطبع يشعرهم هذا الرداء بالفخر. ولذلك يواصلون التحليق فوق رؤوس الناس ارتفاعاً وانحداراً ودوراناً باستمرار لاستعراض أجنحتهم الجميلة.

حسبكم هذا اليوم. أخبر أباك يا فأر المسك أني سأطارد الثيران معه غداً».

Twitter: @ketab_n

لماذا صار الأسد الجبلي طويلاً ونحيفاً

هل رأيت السهول في الصباحات؛ صباحات أيام يونيو بالتحديد؟ عندما يحلق طائر القبرة ويغرد، وينادي طائر الزقزاق، ويبوح الكروان بأسراره الشيّقة إلى الشمس المشرقة؟ ها هي الموسيقى، فلا يوجد من يعلو تغريده على صوت طائر القبرة، كما أنه- وبفضل الشيخ- ليس مطلوباً بأعداد كبيرة، ما يجعل السهول أكثر روعة في هذا الفصل من العام، لكنها تشد المرء إليها في جميع الأوقات لشدة غموضها، خاصة عندما تحنو عليها سلسلة الجبال المغطاة بالثلوج. وعندما تلقي بناظريك إلى الشرق فلا تجد لها حدوداً، بينما تبدو لك حين ترنو إلى الغرب وكأنها تنبع من تلك الجبال الهائلة.

وكان الهنود يجولون في كل أنحاء هذه البلاد، يتبعون قطعان الثيران الكبيرة، كما تفعل الذئاب ويحصلون على قوت يومهم باستخدام القوس والرمح منذ أن أتاهم الحصان، في حين كانوا يستخدمون زوارق «البيسكن» في الأيام القديمة- وكانت

Twitter: @ketab_n

الثيران تستحث كي تتبع رجلًا يرتدي ملابس رائعة، (تحاكي شكل الثيران) نحو منحدر يقع على مسافة بعيدة، مما يجعل القطيع يسير في هذا الاتجاه، وعندما يجد الرجل الثور مكاناً للاختباء، يظهر الهنود من مخابئهم، خلف الحيوانات ويقتادونها فوق المنحدر، حيث يقتلون منها الكثير.

فلم تكن توجد الجياد في هذه القارة، حتى أتى «كورتيز»[1] بفرسانه، من إسبانيا، ثم مرت أجيال قبل أن تتمكن قبائل السهول من امتلاك هذا الحيوان الثمين الذي غير نمط حياتهم على نحو كبير. فقد كانت الكلاب تجر زلاجات الهنود وكانت تحمل السلع البيتية في الأزمنة التي سبقت مجيء الحصان ولمدة مئات، وربما آلاف السنين لم يكن لدى هذه الشعوب أي وسيلة أخرى لنقل سلعهم وممتلكاتهم. ولأن الهندي بطيء في النسيان وبطيء في تغيير نمط حياته التي ورثها عن أسلافه أعتقد أنه ينبغي علينا أن نتريث قبل أن أصفه بأنه قصير النظر حقاً.

لقد كان دوماً رب عائلة، حيث كان ينبغي للهندي حمل أطفاله الصغار بالإضافة إلى عربته ومخيّمه. فضلًا عن تغذية «الكلاب الذئاب» بشكل ما، مما يزيد من مسؤوليته لأن الأمر يستغرق كثيراً كي يتمكن في المقام الأول من السفر.

(1) هيرمان كورتيز (1485–1547) الفاتح والمستكشف الإسباني الذي هزم إمبراطورية الأزتك وفتح المكسيك، وهو مؤسس السلطة التشريعية ذي المجلسين في إسبانيا(م).

Twitter: @ketab_n

وعندما أرخى الليل سدوله، وزرنا «نسر الحرب» وجدنا لديه صحبة آخرين، لذا فقد انتظرنا حتى انتهت زيارتهم، قبل أن نستعد لسماع القصة التي سيحكيها.

وقال «نسر الحرب» بمجرد رحيل الضيوف الآخرين: «لقد سرقت قبيلة الكروز بعضاً من أفضل جيادنا، وهذا أمر جيد، سنستعيدها وأكثر. لقد استعار الكروز (الغربان) تلك الجياد فقط، وستدفع مقابل استعمالها مع أحصنة أخرى يملكونها. سأخبركم الليلة لماذا يبدو الأسد الجبلي طويلاً جداً ونحيفاً، ولماذا يبدو شعره محروقاً. كما سأخبركم لماذا أنفه أسود اللون. هذا جزء من القصة!

قبل زمن بعيد، كان الأسد الجبلي قوياً وقصيراً. إني على يقين أن هذا ما كان ليخطر لكم على بال. لقد كان على الدوام لصاً كبيراً مثل الشيخ، إلا أنه جاوز الحد ذات مرة كما سترون.

وفي يوم من الأيام، كان الشيخ على قمة إحدى التلال، ورأى الدخان ينبعث من بين الأشجار على مسافة بعيدة، على السفح الآخر من الوادي.

Twitter: @ketab_n

فقال متعجباً: «من يوقد هذه النيران غيري. أعتقد أن علي أن أذهب وأكتشف بنفسي».

عبر الوادي وتسلل بحرص نحو الدخان. وعندما اقترب إلى حد ما من مكان الحريق، توقف وأرهف السمع، فوصل إلى سمعه بعض الضحكات العالية، لكنه لم يستطع معرفة من ذا الذي يشعر بالسعادة الشديدة. وأخيراً زحف مقترباً أكثر، واختلس نظرة من خلال الشجيرات باتجاه النار. ثم رأى بعض السناجب الذين كانوا يلعبون. كانوا يجرون ويضحكون، فقد كان لديهم متسعٌ من الوقت لذلك.

وما كانت لعبتهم تلك؟ كانوا يجرون حول النار مطاردين جميعاً سنجاباً واحداً. وبمجرد اصطياد السنجاب يدفنونه في الرماد قرب النار حتى يجهش بالبكاء. ثم يخرجونه على عجل. ثم يجري سنجاب آخر ويستمر حتى يصلوا إليه مثل السنجاب الآخر. وبدوره يوافق الأسير على الدفن وهكذا مع استمرار السباق والضحك. وما كانوا يتركون ذلك المدفون في الرماد بعد أن يصرخ فهم يلتزمون دوماً بوعدهم ويخرجونه على الفور.

وقال لهم الشيخ: «ما رأيكم في أن نلهو؟».

Twitter: @ketab_n

لكن السناجب فرت جميعاً، مما استغرق وقتاً طويلاً لإقناعها بالعودة إلى حيث كانت شعلة النار.

وبعد عودتها، رد عليه كبير السناجب قائلاً: «لا يمكن أن تلعب هذه اللعبة».

فقال الشيخ: «بل أستطيع، قم بدفني أولاً ولكن أخرجني عندما أصرخ ولا تتركني أحترق فهذا الرماد ساخن قرب النار».

قال كبير السناجب: «حسناً سنسمح لك باللعب.. استلق!».

استلقى الشيخ قرب النار. ثم بدأت السناجب في الضحك ودفنته في الرماد على طريقتها. وسرعان ما صرخ الشيخ: «آه إنكم تحرقونني.. أخرجوني بسرعة!».

التزمت السناجب بوعدها، وأخرجته من الرماد وسخرت منه لأنه صرخ بشدة.

وقال الشيخ: «والآن جاء دوري لتغطية الأسير. ولأنكم كثيرون، فأنا عندي خطة ستجعل اللعبة أسرع وأكثر إمتاعاً. عليكم أن تستلقوا دفعة واحدة وفي صف واحد. وسوف

Twitter: @ketab_n

أغطيكم معاً. وعندما تصرخون سأخرجكم على الفور وتنتهي اللعبة».

ولأنهم لم يحيطوا علماً بطباع الشيخ، فقالوا له: «موافقون!».

ثم استلقوا كلهم في صف عند النار.

دفنهم الشيخ تحت الرماد وألقى مزيداً من الحطب في النار وراح بعيداً وتركهم. وكانت كل سناجب العالم قد دفنت في الرماد باستثناء أنثى سنجاب واحدة قالت للشيخ إنها لن تتمكن من اللعب وعليها العودة لكوخها. ولو لم تفعل لكانت كل السناجب قد انقرضت من العالم الآن. لكنها كانت محظوظة بعودتها إلى الكوخ.

جعل الشيخ يحدّق في النار بضع دقائق، وهي تستعر أكثر فأكثر ثم مضى لقناة ينمو عندها شجر الصفصاف وأعدّ لنفسه طبقاً كبيراً من الصفصاف. وعندما انتهى من إعداد الطبق، عاد إلى النار وقد هدأ سعيرها. فرح بعمله الشرير وصاح به غراب كان يحلق فوقه حينئذ وقال: «أيها المنافق الكاذب». لكنه لم يأبه به على الإطلاق. قطع الشيخ عصاً طويلة وبدأ في استخراج السناجب. وأخرجهم واحداً بعد الآخر من الرماد الساخن وكانوا مشويين جيداً وجاهزين للأكل.

Twitter: @ketab_n

وأخذ يحصي عددهم وهو يخرجهم. وضعهم على طبق الصفصاف. وعندما أخرج آخر واحد، أخذ الطبق إلى القناة وجلس هناك ليأكل، وكان جائعاً كعادته. فالشيخ شره في الأكل، غير أنه لم يستطع أكل كل السناجب دفعة واحدة، فنام وهو يأكل والطبق الكبير مستقر في حجره.

لا أحد يعرف حتى متى ظل نائماً، لكنه استيقظ ليجد طبق السناجب قد اختفى تماماً. نظر حوله لكن الطبق اختفى بالفعل. فاستشاط غضباً. وراح يبحث بين الشجيرات، منادياً بأعلى صوته، لكن دون مجيب، ثم بدأ البحث عن اللص. كان الشيخ عينان ثاقبتان، فوجد أثراً في العشب يدل على مرور أحدهم وهو نائم، فقال: «لقد سرق الأسد الجبلي سناجبي. فهذه آثار أقدامه الناعمة تظهر على العشب أثناء مروره.. لكني سأعثر عليه وأعرف طريقه».

زحف الشيخ على يديه وركبتيه مثلما تسير الدببة على غرار ما فعل في تلك الليلة حين تسلل إلى كوخ القمر واقتفى أثر الأسد الجبلي على التلال وعبر المستنقعات. ووصل أخيراً إلى موضع كانت فيه كل الحشائش مائلة وعثر هناك على طبقه المصنوع من الصفصاف، إلا أنه كان فارغاً. كان ذلك هو المكان الذي توقف

Twitter: @ketab_n

فيه الأسد الجبلي ليأكل ما تبقى من السناجب، لكنه لم يمكث هناك طويلاً لأنه توقع أن الشيخ سيحاول تعقبه.

أكل الأسد الجبلي الكثير من السناجب حتى غلبه النعاس فبعد فترة من السفر بعد أكله السناجب شعر بالحاجة إلى الراحة. لم يكن ينوي أن ينام، غير أنه زحف على حجر كبير قرب سفح التل وجلس، كي يرى حتى مسافات بعيدة. وهنا غلب النعاس. عينيه وثقل وأخيراً أخلد إلى النوم.

واستمر الشيخ بلا توقف في اقتفاء الأثر– فالمهم أن تصر على ما تفعله– وقبل الغروب رأى الأسد نائماً، فتسلل بحرص خشية إيقاظه، فلم يحرك حجراً أو يكسر غصناً، لأن الأسد الجبلي أسرع كثيراً من البشر كما تعرفون. وإذا استيقظ، فسيستحيل على الشيخ أن يمسك به مرة أخرى. تسلل ببطء إلى الحجر الذي ينام عليه الأسد الجبلي، وأخيراً أمسكه من ذيله. لم يمسك بجزء كبير من الذيل، لكنه كان كافياً ليقبض على الأسد الذي استيقظ مذعوراً، وتوسل إليه بشدة قائلاً: «دعني أيها الشيخ، فقد نلت كفايتك من الطعام وأنا كنت جائعاً. وكان عليّ أن أجد ما أقتات به. من فضلك دعني أذهب».

كان الشيخ غاضباً إلى درجة فاقت غضبه عندما استيقظ ووجد

Twitter: @ketab_n

أنه تعرض للسرقة، فقد اضطر الآن إلى التنقل على يديه وركبتيه.

وقال: «سأعلمك وأؤدبك الآن. أتسرق مني؟ أتسرق من الرجل الذي صنعك، أيها الوضيع الأفاق؟».

ووضع الشيخ قدمه خلف رأس الأسد الجبلي، وقام ممسكاً بذيله وسحبه بشدة ولمدة طويلة، فتمدد الأسد الذي صرخ وانتحب، بيد أن الشيخ واصل الشدّ. ثم وضع قدمه على ظهر الأسد الجبلي وشد الذيل الذي كان لا يزال ممسكاً به حتى صار بمثل طول جسمه.

«ها أنت أيها اللص وقد بتّ طويلاً جداً ونحيفاً جداً، ولن تكون بديناً بعد اليوم، بل ستبقى دوماً على هذا الحال. وسيكبر أطفالك كلهم ويكون لهم هذا الشكل. هذا هو ثمن سرقتك للرجل الذي صنعك. تعالَ معي!».

وجر الأسدَ المسكين إلى المكان الذي توجد فيه النار، ولفه في الرماد الساخن هناك، فأحرق شعره وبدت عليه آثار الحروق. ثم ألصق أنفه بالجذوع المحترقة فاسود، لذلك يبدو وجهه بالشكل الذي هو عليه الآن.

أصيب الأسد الجبلي بالعرج وبتقرحات. لكن الشيخ زاد

Twitter: @ketab_n

من توبيخه وتقريعه، أخبره أنه سيحتاج إلى الكثير من الطعام لكي يتمكن من العيش، وعليه أن يعمل بجد ليحصل على قوته وليدفع ثمن ما اقترفه. ثم قال له: «اذهب الآن واعلم أن كل الأسود الجبلية ستكون مثلك بعد ذلك». وهو ما حدث.

وهذا ما جعل الأسد الجبلي طويلاً ونحيلاً جداً، لكنه ليس لصاً في ضراوة الشيخ، ولا في مثل كذبه!».

Twitter: @ketab_n

سروال النار

حدث تغير مفاجئ في الطقس. فراح المطر البارد ينهمر وأقبل الليل مسرعاً واقتربت السحب من الأرض. كان الأطفال يبحثون عن نيران مضيئة وفي تلك الليلة بينما كان بيت «نسر الحرب» مضاء كالنهار، وعلى مسافة بعيدة في السهول أخذ الذئب يعوي والمطر ينهمر على المنزل كأنما لا نهاية له. كان المساء رائعاً يصلح للحكايات. وقام «نسر الحرب» بحشو غليونه وإشعاله واحتشد الأطفال حول النار.

طارت شرارة من الجمرات المشتعلة وسقطت على ساق «السهم الجميل». وضحك الجميع من قلوبهم على الصبي وهو يخلص نفسه من الشرارة وعندما توقف الضحك وضع «نسر الحرب» غليونه جانباً. ذلك الغليون الهندي، الذي- على كبر حجمه- لا يحوي سوى قليل من التبغ.

Twitter: @ketab_n

قال المحارب الشيخ: «ظلالكم على جدران المنزل؟».

أجاب الأطفال بأنهم يرونها.

فواصل حديثه: «يوماً ما سوف أحكي لكم قصة عنها، وكيف غررت بسهام أعدائنا. لكنني الليلة سوف أحكي لكم قصة سراويل النار الكبيرة.

منذ زمن طويل يحيا الرجال والنساء في دنيانا هذه، لكن جدي قص عليّ لي ما سأرويه لكم الآن.

كان الضوء الرمادي، الذي يخفي نجوم الليل يتسلل بين أشجار الغابات، وكانت الريح، التي ترسلها الشمس لتحذير الناس من مجيئها تهب بين قمم أشجار التنوب. وقد انحنت الزهور ذات السيقان الرشيقة احتراماً وإجلالاً للرياح التي أرسلتها الشمس نذيراً، ومن فوق قمة إحدى أشجار الصنوبر كان طائر «المطرقة الصفراء» يدق طبلته ويصيح في المخلوقات: «استيقظت الشمس فهبوا لتحيتها».

فأخذت طيور الشجيرات في تغريد أغنية الصباح، ومن أشجار «جارة الماء» اندفعت طيور أبي الحناء حتى توقظ كل الأحياء بتغريدها الجميل.

Twitter: @ketab_n

وحيث ينمو السرخس الطويل راحت الظباء توقظ صغارها وتدعوها لتقديم فروض الولاء لضياء الشمس الجليلة. وفي الجداول الهادئة الصافية تحت ظلال الأوراق المنخفضة فوق المياه كأوراق الزينة الهشة كان السلمون المرقط يشق صفحة البركة فرحاً بقدوم نهار جديد. وكانت سناجب الصنوبر تثرثر في مرح فتذيع ما أسرت به الريح، وكانت الظلال تتجهز لرحلة عظيمة إلى الكثبان حيث تقيم قبيلة الأشباح.

وتحت شجرة صنوبر كبيرة حيث الأرض ناعمة جافة رقد الشيخ نائماً. لم تستثره الفرحة التي عمت الخليقة على الرغم من كون الشمس بالقرب منه. نظرت قبيلة الطيور إلى النائم في عجب، لكن سنجاب الصنوبر تسلق شجرة الصنوبر الكبيرة وفي فمه ثمرة. وجرى بسرعة على غصن متدلٍ فوق الشيخ وأسقط الثمرة فوق وجه النائم.

ثم وبخ الشيخ قائلا: «استيقظ أيها الكسول».

فرك الشيخ عينيه بغضب ورأى الشمس تشرق. وكان سروالها يتسلل وسط أشجار الغابة يشعلها فكانت الغزلان والظباء تفر بحثاً عن أماكن جديدة لتختبئ فيها.

Twitter: @ketab_n

وقال الشيخ للشمس: «يا أيتها الشمس إن السروال الذي ترتدينه هائل. ولا شك أنك صيادة عظيمة. لقد أضاء سروالك كل الغابة، فسهّل عليك رؤية الغزلان والظباء وصعّب عليها التواري والاختباء. ألا تعطيني هذا السروال لأكون صياداً ماهراً ولا يقرصني الجوع البتة».

ردت الشمس: «خذه وأرني كيف ترتديه».

كانت سعادة الشيخ لا توصف لأنه كان كسولاً وظن أنه الآن بإمكانه الوصول إلى غايته دون القيام بعمل كثير وأن بإمكانه أن يكون صياداً عظيماً كالشمس. ارتدى السروال وسرعان ما انطلق للصيد في الغابة فقد كان جائعاً.

وبعد قليل أخذت حرارة السروال تلسع ساقيه. فكلما زادت سرعته زادت سخونة السروال حتى دفعه الألم إلى نداء الشمس كي تأتي وتستعيد سروالها لكن الشمس لم تسمعه. فواصل الشيخ الجري والجري أسرع فأسرع في أنحاء الأرض لتشتعل النار في الشجيرات والأعشاب، التي يمر بها. وأخيرا وصل إلى نهر عظيم وقفز فيه. فما أن لمس سروال الشيخ صفحة الماء حتى سمع الشيخ أزيز الماء، الذي ارتفع صراخه كما يحدث عندما يتم رشها على الأحجار الساخنة في حمام البخار فالسروال كان

Twitter: @ketab_n

شديد السخونة. لكن الشيخ وقف وسط المياه الباردة وخلع السروال وألقى به على الشاطئ حيث وجدته الشمس في وقت لاحق من ذلك اليوم.

كان رداء الشمس كبيراً جداً بالنسبة للشيخ وكان ارتداؤه شاقاً جداً عليه.

علينا ألا نطلب القيام بأشياء لا يريد منا «مانيتو» القيام بها. فإذا تذكرنا هذا على الدوام فلن نتعرض لأي مشكلة.

«كن نفسك دائما»، هذا ما يعنيه «المانيتو».

لا تلم الذئب على ما يفعله. فهو قد خلق للقيام بمثل هذه الأشياء».

والآن أريد منكم العودة إلى منازلكم وأن تخلدوا إلى النوم. وسأحكي لكم مساء غدٍ حول السبب في وجود كثير من الثعابين في العالم.

Twitter: @ketab_n

القمر والثعبان العظيم

توقف هطول المطر وأطل القمر وسط سماء صافية، وانبعثت رائحة البلل من الأحراج والأعشاب الجافة بعد هبوب عاصفة شديدة. اصطدم أرنب بكتلة من أغصان الورد البري قرب كوخ «نسر الحرب» وكانت بعض الكلاب تطارد الأرنب المرعوب حينما وصل إلى مكان يختبئ فيه. فألقى عجل صغير حجراً في الأحراش لإخافة الأرنب ودفعه للخروج. ففر الأرنب مبتعداً تطارده الكلاب النابحة. وقفنا وأنصتنا حتى تلاشت ضوضاء المطاردة ثم دخلنا إلى الكوخ حيث استقبلنا «نسر الحرب» كالعادة. وكان منهمكاً في التدخين هذه الليلة حتى ساورني الشك في استعداده لسرد قصة. وأخيراً قال: «أعتقد أنكم رأيتم الكثير من الثعابين؟».

فرد الأطفال: «نعم، رأينا الكثير. ففي فصل الصيف نراها بشكل يومي تقريباً».

Twitter: @ketab_n

فرد الراوي: «حسناً، كان يا ما كان في العالم كله ثعبان واحد فقط، كان ضخماً وجميل المنظر ومزركش الجسد بكل الألوان، التي نعرفها. وقد اغترّ كثيراً بملابسه وملأ الشر قلبه. فصارت معظم الثعابين شريرة لأنها تمت له بصلة قرابة.

لم أحك لكم كل القصة حتى الآن ولن أسردها كلها الليلة. تعلمون أن الشمس هي زوجة القمر وسوف أروي لكم يوماً ما هذه القصة لكنني سأحكي لكم الليلة عن الثعابين.

كما تعلمون حين تأوي الشمس للنوم فجراً يرحل القمر دوماً قبل وصولها إلى البيت. وقد لا يحدث هذا أحياناً لكن هذا جزء من قصة أخرى.

اعتاد الثعبان الضخم أن يصعد إلى أعلى تل مرتفع وينظر إلى القمر في السماء. فقد كان يحب القمر وكان القمر يعرف ذلك.

ولكنه لم يعره انتباهاً. كان يحب ملامحه فملابسه كانت جميلة وكان مظهره بارعاً على الدوام. واستمر في النظر إلى القمر فترة طويلة من الزمن لكن القمر لم يتكلم البتة. فظن الثعبان أن التل قد لا يكون عالياً بالقدر الكافي فبحث عن تل آخر أعلى منه كان قد شاهد القمر يمر فوقه. فتسلق هذا التل الأكثر ارتفاعاً ليومئ

Twitter: @ketab_n

إلى القمر. فبدأ القمر يعطي مزيداً من الانتباه للثعبان الضخم وفي صباح باكر، تمهل القمر في عمله قليلاً وتكلم معه. فأصاب الغرور الثعبان وكذلك القمر، فقال له أشياء كثيرة لطيفة، لكنه عاد إلى منزل الشمس وترك الثعبان.

وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، رأى الثعبان مرة أخرى إلا أنه وقف هذه المرة فترة طويلة جداً حتى إن الشمس خرجت من المنزل قبل عودة القمر إليه. وتساءلت ما الذي عطله لهذه الفترة الطويلة وحامت شكوكها حول الثعبان. فقررت أن تراقبهما وتحاول ضبطهما متلبسين. لذا كانت الشمس تخرج من منزلها كل صباح قبل موعدها المحدد.

وذات صباح- بينما تشرق الشمس فوق أحد الجبال- شاهدت الثعبان الضخم يتحدث مع القمر. فاستشاطت غضباً- ولا يمكن أن نلومها- فزوجها القمر يقضي وقته في التسكع مع ثعبان.

جرى القمر هارباً إلى منزل الشمس وترك الثعبان لمصيره على التل. وبسرعة خارقة أمسكت الشمس بالثعبان. فقد كان الغضب يملأها وتوسل إليها الثعبان الضخم كي تتركه وتعهد بألا يثرثر مع القمر مرة أخرى لكن الشمس أمسكت به وهشمته إلى

Twitter: @ketab_n

آلاف القطع الصغيرة كل قطعة متعددة الألوان من أجزاء مختلفة من جسمه المزركش. فتحولت كل قطعة من القطع الصغيرة إلى ثعبان صغير كما ترونها الآن، لكنها أصبحت صغيرة إلى الحد، الذي لا يأبه له القمر. وهذه قصة تذكر كيفية خلق الثعابين في عالمنا وهذا هو السبب في كونها صغيرة الحجم في وقتنا الحاضر.

وقبيلتنا لا تحب قبيلة الثعابين لكننا نعرف أنها خلقت للقيام بمهمة معينة في هذا العالم وأنها تقوم بهذه المهمة وإلا ما كانت لتستمرّ في الحياة.

كانت هذه قصة قصيرة لكنني سأحكي لكم مساء غد عن السبب في أنه لا توجد حويصلة صفراوية لدى قوم الغزلان ولماذا ليس لدى قوم الأيائل أظافر[1] ولكم أن تعرفوا أنه لا يشبهها في ذلك أي حيوان آخر من ذوي الحوافر المشقوقة.

أنا مرهق الليلة وأطلب منكم أن تعودوا إلى منازلكم حتى أنام. فأنا طاعن في السن ولا أستطيع أن أطيل السهر».

(1) Dewclaws: الأظفر أو المخلب الأثاري وهو مخلب صغير لا استعمال له (م).

Twitter: @ketab_n

لماذا ليس لدى الغزال حويصلة صفراء

كان صباح اليوم التالي مشرقاً وكان الأطفال يلعبون على ضفة «النهر الذي يوبخ النهر الآخر» وعندها قال «القوس الجميل»: «هيا لنبحث عن قائمتي غزال وأيل وننظر إليهما لأن جدنا سيحكي لنا الليلة لماذا الغزال لديه أظافر في قائمته على عكس الأيل».

فقال الطائر الأزرق: «أجل وهيا نسأل أمنا لماذا ليس لدى الغزال حويصلة صفراوية في كبده. فقد تستطيع أن ترينا كبد غزال وكبد أيل».

لذا فقد بدأوا تفتيش المخابئ التي يوجد فيها بقايا جلود وكما توقعوا فقد وجدوا قوائم ظباء وأيائل.

كانت هناك أظافر في قوائم الغزلان لكنهم لم يجدوا مثلها في قوائم الأيائل. فصاروا متلهفين لمعرفة سبب هذا الاختلاف بين هذه الحيوانات المتشابهة إلى حد التطابق.

Twitter: @ketab_n

ومرت أم «الطائر الأزرق» على الأطفال في طريقها إلى النهر لتشرب فسألتها فتاة صغيرة: «أخبريني يا أماه هل لدى الغزال حويصلة صفراء على كبده؟».

«لا يا صغيرتي ولكن الأيل لديه وسيخبرك جدك عن سبب ذلك».

وفي تلك الليلة وضع «نسر الحرب» أمام أحفاده قائمة غزال وقائمة أيل وكبد غزال وكبد ظبي.

«انظروا بأنفسكم كيف يبدو الاختلاف حقيقياً قبل أن أحكي لكم سبب ذلك وكيف حدث».

فقالوا: «إننا نرى ذلك واكتشفنا اليوم أن هذه الأشياء الغريبة حقيقية بالفعل لكننا لا نعرف لماذا يا جدنا؟».

«من الطبيعي ألا تعرفوا لماذا. فلا أحد يعرف هذه الأمور حتى يخبره بها أحد ما، وسأحكي لكم الآن كي تعرفوا وتحكوا لأطفالكم كي يعرفوا بدورهم.

حدثت كل هذه الأشياء منذ زمن بعيد عندما كان العالم لا يزال فتياً مثلكم الآن. ففي صباح أحد أيام الصيف كان الغزال

Twitter: @ketab_n

يسافر عبر السهول كي يصل إلى الجبال من الناحية البعيدة، والتي يتواجد بها بعض أقاربه. فشعر بالعطش لأن الجو كان حاراً وتوقف ليشرب من نبع ماء في السهول. وعندما انتهى من الشرب نظر إلى أعلى وكان قريبه الأيل يشرب على مقربة منه.

فقال الغزال: «صباح الخير يا قريبي. الصباح دافئ والماء طيب المذاق، أليس كذلك؟».

أجاب الأيل: «نعم إنه يوم دافئ ولكنني أستطيع أن أتغلب عليك في الجري».

فضحك الغزال وقال: «أنت تهزمني في الجري؟ كيف وأنت لا تستطيع الجري حتى بنصف سرعتي؟ لكن إذا أردت أن نقوم بسباق فلنتراهن على شيء ما. فما هو؟».

فرد الأيل: «سأراهنك على حويصلتي الصفراء».

قال الغزال: «حسناً، ولكن لنجرِ نحو هذه السلسلة الجبلية لأنني ذاهب إلى هناك على أي حال لأزور أقاربي».

فأجاب الأيل: «أنا مستعد هيا نجرِ».

Twitter: @ketab_n

وانطلقا نحو سلسة الجبال البعيدة. وطوال السباق كان الأيل متغلباً بمسافة على الغزال وعند أحد سفوح الجبال توقف لينتظره كي يلحق به.

وتلاحقت أنفاسهما بسرعة من الجري وقال كلٌ منهما أنه بذل أقصى الجهد وقام الغزال الذي تغلب عليه الأيل بإعطائه حويصلته الصفراء.

وقال الغزال: «هذه الأرض مستوية جداً بالنسبة لي. هيا نذهب إلى جانب التل حيث تشق الأودية الأرض والصخور في طريقنا وسترى كيف أجري. فأنا لا أستطيع الجري على أرض مستوية. فهي شديدة السهولة بالنسبة إلي».

فأجاب الأيل: «حسناً، سأجري سباقاً آخر معك وعلى أرضك وأعتقد أني سأستطيع هزيمتك هناك أيضاً».

فتسلقا التل حتى وصلا إلى أرض وعرة. فقال الغزال: «هذا هو النوع الذي أفضله من الأرض. هيا نقوم بالسباق هنا. من يتفوق سيستمر في الجري حتى ينادي الآخر عليه كي يتوقف».

فأجاب الأيل: «هذا يناسبني ولكن علام نتراهن هذه المرة؟ لا أريد أن تنقطع أنفاسنا من دون مقابل. وأرى أن نتراهن على الظفر».

Twitter: @ketab_n

«حسنا سأراهنك على ظفري مقابل ظفرك فيمكنني أن أتغلب عليك مرة أخرى. أأنت جاهز؟ انطلق».

وانطلقا يجريان فوق جذوع الأشجار والأحجار وعبرا الأودية العظيمة، التي تشق التلال فتقسمها نصفين. وواصلا العدو والغزال متغلب بمسافة كبيرة على الأيل. فأصابهما التعب والإرهاق وعندها صاح الأيل: «توقف فقد هزمتني وأنا أستسلم».

فتوقف الغزال وانتظر حتى وصل إليه الأيل وضحكا على الوقت الممتع، الذي قضياه معاً إلا أنه كان على الأيل أن يعطي الغزال ظفره فصار الآن من دونه. بينما الغزال كان وسيظل له ظفر بسبب هذا السباق لكنه الآن دون حويصلة صفراء في كبده بينما يحمل الظبي حويصلة صفراء مثل الحيوانات الأخرى ذات الحوافر المشقوقة.

هذه هي القصة وقد تأخر الوقت كثيراً على حكاية أخرى لهذه الليلة. إذا أتيتم مساء غد فسأحكي لكم بعض قصة بعض المشكلات التي تعرض لها الشيخ في إحدى المرات. وقد كان يستحقها لأنه كان شريراً كما سترون».

Twitter: @ketab_n

لماذا يضرب الهندي التوت ليسقطه عن الأشجار

يعتقد الهندي أن كل الأشياء لها حياة أخرى وأن كل الكائنات خلقتها القوة نفسها وأن أي شيء لم يخلق عبثاً وأنه في حياة ما بعد الممات سيعرف كل شيء كان يعرفه هنا في هذه الحياة. وهو يتوقع في هذا العالم الآخر أن يحيا حياة أسهل لا يعاني فيها الجوع أو البرد لذا فكل الأشياء التي تموت ينبغي أن تذهب إلى جنته كي يتزود بضروريات الحياة فيها.

فالشمس ليست إله الهندي، لكنها تجسيد له. فهي وضياؤه أكبر تجسيد له.

كما يعتقد الهندي أن الرب أعطى كل كائن من كائناته قوة غريبة معينة وأن أصحاب هذه العطايا الخاصة هم ملازمون له وحاملون لعدة صفات خاصة مثل الحكمة والدهاء والسرعة ومعرفة علاج الجروح. وكان الهندي يعرف أن هذه الهبات الرائعة منحها إله معروف لذا فقد احترم هذه القوى وأثنى عليها دون حسد أو غيرة.

Twitter: @ketab_n

كان الدب بالغ الأهمية في الحروب لأنه- قبل مجيء الحصان- كان يُغير أحياناً على المخيمات ويقتل أو يصيب الكثير من الناس. وعلى الرغم من إطلاق الكثير من السهام على جسده الضخم إلا أنه قلما كان يلقى حتفه. لذا فقد اعتقد الهندي أنه بإمكان الدب أن يشفي جروحه. فهو يعلم أن الدب لديه معرفة كبيرة بالجذور و«التوت» فقد كان يراه في كثير من الأحيان يحفر الجذور ويلتقط التوت من الأشجار. فكلٌ من الجاموس والقندس والذئب والنسر له قدرات غريبة ولطالما كانت هذه القدرات مثار إعجاب الهندي واحترامه شأنها شأن كثير من الأشياء الأخرى في الخليقة.

ومتى كان الهندي على شفا حربٍ، فإنه لم يكن يطلب العون من الرب، لأنه يدرك أن الله خلق عدوه كذلك ولذا فإنه إذا كان يريد أن يقضي على عدوه فسيكون ذلك من دون مساعدة الإنسان. ولذا كان الهندي يغني أغنيته للدب ويصلي للدب ويطلب المساعدة من الوحش وليس من الرب عندما يسعى إلى تدمير أعدائه.

وعندما كان الهندي يدعو الإله العظيم، كان دعاؤه من أجل الحياة والحياة فقط. فهو أكثر البشر ورعاً من بين الذين عرفتهم

Twitter: @ketab_n

على الإطلاق وذلك بالإضافة إلى أنه أكثرهم إيماناً بالخرافات وبالطبع هناك قصص مدهشة خاصة بديانته.

قال «نسر الحرب» في هذا المساء في منزله: «ليس هذا الوقت من العام مناسباً للحديث عن التوت، إلا أنني سأخبركم لماذا تضرب أمهاتكم أشجار التوت ليسقط عن الأشجار. فقد كان الشيخ هو أول من بدأ ذلك واقتدى به قومنا من حينها. فقد جعل من نفسه أضحوكة في ذلك اليوم.

كان ذلك أوان نضوج التوت واحمراره. وكانت كل الأشجار بمحاذاة الأنهار محملة بالثمار وكان قومنا على وشك جمع ما يحتاجون إليه منه، حينها غيّر الشيخ أسلوب القطاف.

فقد كان ينتقل بمحاذاة النهر جائعاً– كما هو حاله دائماً– ورأى وهو واقف على ضفة ذلك النهر مجموعات كبيرة من ثمار التوت الناضجة الحمراء في الماء. وكانت أكبر مما رآه يوماً. فقال: «سأحصل على هذا التوت. فهو يبدو ناضجاً وأنا أحتاج إليه. كما أن بعض الناس قد يرونه ويقطفونه إذا لم أفعل ذلك».

Twitter: @ketab_n

وقفز في الماء وبحث عن التوت ولم يجده في الماء. وظل الشيخ واقفاً في النهر بعضاً من الوقت.. يبحث عن التوت من دون جدوى.. فقد اختفى.

وبعد فترة خرج إلى الضفة مرة أخرى وعندما هدأ اضطراب المياه عاد التوت للظهور، في البقعة نفسها.

فقال لنفسه: «أمر غريب. أين اختفى خلال هذا الوقت. ينبغي أن أحصل على هذا التوت».

وقفز في الماء مرة أخرى مثلما يسقط الدب. وبحث عنه لكن التوت اختفى مرة أخرى. كان الماء يموج من حوله إلا أنه لم يكن هناك أي توت. فتحسس قاع النهر إلا أنه لم يجده هناك.

فقال: «حسناً، سأخرج من الماء مرة أخرى لأرى من أين يأتي التوت ثم أمسك به عندما أنزل في المياه في المرة القادمة».

وفعل ذلك لكنه لم يتمكن من معرفة المصدر، الذي يجيء منه التوت. فما إن استقرت المياه حتى ظهر التوت مثلما حدث في المرات السابقة. فجن جنون الشيخ واستشاط غضباً وقد كانت معدته خاوية فقفز قفزة هائلة في المياه، التي تموج بشدة لكن التوت اختفى.

Twitter: @ketab_n

«أعرف ما سأفعله. سأبقى في مكاني وأنتظر التوت.. هذا ما سأفعله»، وهذا ما كان.

كان يعتقد أن أي شخص ينظر إليه سيضحك لذا فقد نظر بمحاذاة الضفة. ثم نظر إلى المياه مباشرة فلاحظ مجموعة التوت نفسها على بعض الأشجار الطويلة. فقد كان الشيخ ينظر إلى انعكاس شجرة التوت في الماء وليس للتوت نفسه. هذا كل ما في الأمر، ولكن ذلك الأحمق لم يكن يعرف أنه غير حقيقي.

استبد به الغضب حينها. وصار ميالاً للقتال. فصعد للضفة مرة أخرى وقطع عصا. ثم أخذ يضرب أشجار التوت حتى سقط كل التوت الأحمر على الأرض وصارت كل الفروع خالية من التوت.

وقال: «هذا جزاؤك للاستهزاء بمن صنعك. سنضربك كل عام ما حييت جزاء ما اقترفت وستدفع ثمن ذلك أنت وذريتك أيضاً».

وهذا هو السبب في أن أمهاتكم يجلدن أشجار التوت ثم يلتقطن التوت عن الأرض.

Twitter: @ketab_n

الثعلب والشيخ

أنا متأكد من أن هنود السهول لم يصنعوا نصل السهم الحجري أو يستخدموه. فقد سمعت رجالاً بيضاً يقولون إنهم رأوا هنودًا يستخدمونها لكنني لم أعثر على هندي يستخدمها بنفسه مطلقًا، ولم أسمع عن أحد منهم استخدمها. فمنذ ثلاثين عاماً وأنا على علاقة وثيقة بهنود تبلغ أعمارهم المئة عام، قالوا لي إن أنصال السهام الحجرية لم تكن مستخدمة على الإطلاق في أيامهم ولم يستخدمها آباؤهم في زمنهم. ويجد الهنود على أنصال السهام هذه عند عثورهم على مطارق مصنوعة من الحجر وقد رأيتهم يستخدمونها آلاف المرات لكنهم لا يصنعونها الآن مثلما يصنعون المطارق المصنوعة من الحجر. وفي الماضي، كان كلٌ من نصل الرمح ونصل السهم يصنعان من العظام حتى إن السكاكين كانت تصنع من العظام.

ولكن نما إلى علمي أن هناك أناساً كانوا يصنعون أنصال السهام المبعثرة في أنحاء متفرقة من الولايات المتحدة وأوروبا.

Twitter: @ketab_n

وذات ليلة سألت «نسر الحرب» إذا كان سمع باستعمال الهنود لنصل السهم الحجري فقال إنه لا يعرف. وقال لي: «إنه مقابل التخوم الكندية مباشرة هناك بحيرة صغيرة تحيط بها أشجار، وجزيرة مغطاة بالبوص الطويل والأعشاب. وعلى حافة هذه الجزيرة نبات الصفصاف، الذي كان ينمو قرب الماء ويتخلله شاطئ ضيق من الأحجار.

وقال: «كانت في هذا المكان تصنع أنصال السهام الحجرية على أيدي قبائل من الأشباح كانت تعيش هناك». وأكد لي أنه كان يرى في أحيان كثيرة تلك الكائنات الغريبة الصغيرة، عندما كان صبياً صغيراً. وكلما كانت قبيلته تقيم مخيماً بجوار هذه البحيرة كان العجائز يوقظون الأطفال عند الفجر ليروا قاطني هذه الجزيرة من الكائنات الغريبة ودائماً عندما تحدث ضوضاء أو تشرق الشمس كانت هذه الكائنات الغريبة تختبئ. وكان يرى في كثير من الأحيان رؤوسها فوق الأعشاب ونباتات الصفصاف الصغيرة.

وكان جده قد أخبره أن كل أنصال السهام الحجرية تم صنعها على هذه الجزيرة وجرى في الحروب في كل أنحاء العالم إطلاقها بسهام سحرية.

Twitter: @ketab_n

وقـال: «لا، لن أكـذب عليك يا صديقي. فلم أرَ هذه المخلوقات الصغيرة تطلق أي سهم على الإطلاق ولكن هناك كثير من السهام وكثير من أجزاء سهام مكسورة وهذا يثبت أن جدي كان محقاً فيما أخبرني به. أضف إلى ذلك أنه لا يستطيع أي شخص أن ينام في أي وقت على تلك الجزيرة. لقد سمعت أسطورة قام فيها الشيخ في البداية بقتل حيوانٍ ليأكله الناس ثم طلب منهم أن يستخدموا ضلوع الحيوان الميت لصنع أنصال سهام وسكاكين. ولقد رأيت أنصال حراب مصنوعة من عظام الساق وكانت شديدة اللمعان لدرجة أنها كانت تشبه اللؤلؤ وعندي أنصال سهام مصنوعة من العظام مثل تلك، التي تستخدم منذ زمن بعيد. ولا ينسى الهنود تاريخهم القبلي بسهولة ولقد صُورت قبعة ريشية مصنوعة من شعر الجاموس المجدول قبل أن يمتلك الناس الحصان أو يروه.

وأخبرني صاحب هذه القبعة أن الهنود لم يستعملوا إطلاقاً أنصال السهام الحجرية وأنه كان يعرف أن قبائل الأشباح هي التي صنعتها واستخدمتها عندما كان العالم فتياً. كان طول سهم هندي السهول يبلغ من ست وثلاثين إلى أربع وأربعين بوصة وكان مصنوعاً من خشب شجرة الكرز. وكانت الأقواس

Twitter: @ketab_n

تصنع أحياناً من خشب شجرة التوت، الذي يعتبر الأفضل لصنع السهام. ورأيت أقواساً من الخشب لدى هنود السهول أيضاً وكانت هذه الأقواس أطول وكانت دائماً مستقيمة بدلاً من أن تكون مثل قوس إله الحب كيوبيد. كانت أقواس الخشب هذه تأتي من الشرق. ومن خلال التجارة- بالطبع- وصلت إلى أراضي السهول. كما رأيت الأقواس المغطاة بجلد الثعبان أو الملفوفة بأوتار، وكان هناك أقواس تصنع في الماضي البعيد من قرون الغزال بعد فترة طويلة من الإعداد.

قبل أن يعبر لويس وكلارك[1] هذه الأراضي الشاسعة، كانت قبيلة «الأقدام السود» تتاجر مع شركة «هدسون باي»[2] وما زالت السكاكين وأنصال السهام الفولاذية تحمل أسماء الشركة المصنعة الإنجليزية لتبقى شاهدة حتى الآن على وجود علاقات في تلك الأيام بين هؤلاء التجار المشاهير ورجال من قبائل الهنود الحمر «بيجان» و«بلود» و«الأقدام السود» على الرغم من أن الأمر استغرق سنوات كثيرة ليحظى التجار بصداقتنا. وبالطبع، ألقى الصيادون

(1) حملة لويس وكلارك الاستكشافية (1803-1806): ترأسها مرويثر لويس ووليام كلارك وكانت أول رحلة استكشافية أمريكية إلى ساحل المحيط الهادئ (م).

(2) هي أقدم مؤسسة تجارية في كندا ومن أقدمها في العالم وكانت بمثابة حكومة الأمر الواقع في شمال أمريكا قبل وصول المستعمرين الأوروبيين لإنشاء مستعمراتهم (م).

Twitter: @ketab_n

والتجار باللوم على شركة «هادسون باي» فيما يخص شعور الكراهية الذي كانت تكنه القبائل الثلاث من الهنود الحمر تجاه الأمريكيين، وكانوا محقين بالتأكيد على الرغم من أن قتل الكابتن لويس لمحارب من قبيلة «الأقدام السود» من الهنود الحمر عام 1805 كان سببه- إلى حد كبير- هو القلاقل. واستمر حظر «الأقدام السود» للتجار وللصيادين سنوات عديدة بعد حادثة القتل، ما لم يكن هؤلاء التجار والصيادون من رجال «هدسون باي»، وفي عام 1810 طردت «الأقدام السود» الصيادين والتجار الأمريكيين من حصنهم في «ثري فوركس».

كان الوقت مبكراً عندما التقيت بالأطفال في كوخ «نسر الحرب»، الذي سرعان ما بدأ في سرد القصة.

استهل «نسر الحرب» حديثه قائلاً: «والآن يا أعزائي سوف أقص عليكم قصة تبين لكم كيف أن الشيخ لم يكن حريصاً على سعادة الآخرين وراحتهم».

«بدأت أحداث القصة في يومٍ دافئٍ مشرق من أيام الخريف، حين ارتحل الشيخ بصحبة أخيه «الثعلب الأحمر»، وما إن بلغا سفح إحدى التلال، إلا وقال الشيخ لأخيه «أشعر بالجوع، هلا

Twitter: @ketab_n

اصطدت لنا أرنباً أو شيئاً نأكله؟ فالرحلة لا تزال طويلة وكما تعلم قد بلغني الكبر، أما أنت فقد أوتيت من الخفة والدهاء ما يعينك على جلب الطعام بسرعة، والكثير من الأرانب تختبئ بين هذه الصخور».

رد عليه الثعلب قائلاً: «منذ الصباح وأنا أبحث عن طعام نأكله. لكن هناك خطأ ما، لأني لم أر شيئاً يصلح لسد جوعنا، ولا طاقة لي على الصيد والقتل، أما أنت فقدرك عظيم وطالما سمعتُ أنك قادر على فعل أي شيء. لقد عرفت الثلوج آثار قدميك، والثلوج هي التي استقينا منها الحكمة، لذا أعتقد أنك الوحيد القادر على المساعدة، وليس أنا».

قال الشيخ: «اسمع يا أخي.. أنا لا أملك قوساً أو رمحاً أو أي شيء أستعين به على الصيد. أما أنت فأسلحتك لا تبرحك: أنفك كبير وأسنانك حادة. وقد أبصرت ثورَين عندما وصلنا إلى هذا التل، لكنك لم ترهما، وإذا فعلت ما أطلبه منك، فسننعم بوفرة من اللحم الطيب. إليك خطتي! سأنزع الفروة عن جسدك حتى يصبح أبيض وأملس كجسم السمكة، لكني سأترك الشعيرات البيضاء الموجودة على طرف ذيلك، حتى يبدو مظهرك مضحكاً، بعدها تتجه نحو الثورين وتشرع في التمايل والرقص والتصرف

Twitter: @ketab_n

ببلاهة، وبالطبع سيضحك الثوران على مظهرك وحركاتك. وما إن يبدآ في الضحك حتى تزيد من التصرف ببلاهة فيزداد ضحهما ويقعان أرضاً من كثرة الضحك،وساعتها يأتي دوري فأنقض عليهما بسكيني وأقتلهما. والآن ما رأيك يا أخي هل ستنفذ خطتي أم تموت جوعاً؟».

صاح الثعلب: «ماذا! تنزع فروتي؟ لكنني سأتجمد من البرد. قطعًا لن أسمح لك بنزع فروتي لا سيما وأن الشتاء على الأبواب».

أجاب الشيخ مستنكراً: «إنها الخيلاء يا أخي وليس الخوف من التجمد برداً. واعلم أنك لو فعلت ما قلته لك فسنحظى من اللحم بما يسد جوعنا ومن النار بما يشعرنا بالدفء طوال الشتاء. انظر.. ها هي الرياح تهب من الجنوب والجو دافئ، وليس هناك ما يخيفك من التجمد، هيا تعال أنزع عنك فروتك».

فأجاب الثعلب: «حسناً إذا كنت متأكداً من أنني لن أتجمد من البرد فأنا موافق، لكنني أراهن على أني سوف أندم على هذه الفعلة».

Twitter: @ketab_n

«وما إن بدأ الشيخ في نزع فروة الثعلب - تاركاً فقط الشعيرات البيضاء على طرف ذيله- حتى ارتعد الثعلب المسكين حين هبّ النسيم الدافئ، الذي حدثه عنه سابقاً، وقال للشيخ: «كم هو مؤلم نزع الفروة عن الجسد». وما إن انتهى الشيخ حتى راح يضحك على الثعلب قائلاً: «ما الذي يبقيك هنا لتثير ضحكي! هيا اذهب وارقص أمام الثورين، أما أنا فسأراقب الموقف وأستعد لتنفيذ الجزء الخاص بي من الخطة».

«اقترب الثعلب المسكين من الثورين وراح يرقص أمامهما كما أخبره الشيخ، وما إن نظرا إليه حتى أخذتهما نوبة من الضحك، وحسب الخطة المتفق عليها حاول الثعلب أن يزيد من تصرفاته البلهاء فوقف على قائمتيه الخلفيتين وراح يتراقص ويتمايل بكل طاقته. تعالت ضحكات الثورين وسقطا أرضاً وأنفاسهما توشك أن تنقطع من كثرة الضحك، وواصل الثعلب حركاته البلهاء خشية أن ينهض الثوران قبل مجيء الشيخ إلا أنه سرعان ما جاء حاملاً سكينًا وطعن قلبيهما بسكينه، فمات الثوران وسالت دماؤهما على الأرض.بعدها قال الشيخ وهو يضحك: «يا لذكائي.. أنا الصياد الحقيقي. لقد استعملت عقلي في الحصول على اللحم.. ها.. ها.. ها.. ها».

Twitter: @ketab_n

انهمك الشيخ بعدها في سلخ الثورين واستخراج اللحم، ولم ينتهِ إلا والليل يوشك أن يرخي أستاره. أما الثعلب المسكين فظل واقفاً طوال الوقت، ولم يلحظ الشيخ أن الرياح غيرت مسارها وبدأت تهب من ناحية الشمال. فظل الثعلب المسكين واقفاً لا يتلفظ بكلمة حتى بعدما فرغ الشيخ من عمله.

التفت الشيخ للثعلب قائلاً: «يا هذا! ما الأمر؟ أأنت آسف بعد أن حصلنا على اللحم؟ أجبني».

إلا أن الثعلب لم يجبه لأنه قد مات متجمداً من البرد.. فقد قتلته الرياح الشمالية حين كان الشيخ يسلخ الثورين، فقد حاصرته تلك الرياح- وهو عار بلا فروة تحميه من بردها- وتسببت في موته. أما الشيخ فأشعل ناراً وأخذ يدفئ يديه فقد كان هذا هو ما أراده للثعلب، بل كان هذا ما أراده للجميع. ولعله أدرك أنه لا يوجد من يقوى على الصمود أمام الرياح الشمالية دون رداء يحميه من بردها. وكان منتهى غايته أن يشعر هو بالدفء.

إلى هنا تنتهي قصة اليوم، والليلة القادمة سأحكي لكم لماذا تحمل شجرة البتولا تلك الشقوق الصغيرة في لحائها.. ويا للمفارقة فقد كان هذا أيضاً بعضاً من عمل الشيخ..».

Twitter: @ketab_n

لماذا تحمل شجرة البتولا تلك الشقوق الصغيرة في لحائها

لم يحدث قط أن استطاع الرجل الأبيض أن يفهم الهندي. والمثال الذي ضربه إخواننا البيض للقبائل الغربية التي تعيش في المروج لم يكن ليُلهم الهندي الأحمر ويجعله يشعر بالثقة أو حتى الاحترام تجاه قوانيننا أو ديننا. فقد كانت أولى صفات الرجل الأبيض التي استقرت في أذهان الهنود أنه ناصب للفخاخ ومقاتل وقاطع طرق ولص يسرق الخيول والماشية، وتتلوى أحشاؤه بسبب ما تحمله من لحوم البقر– بل إن هذه الصفات التي عرفها الهندي كانت أهون بكثير مما لم يعرفه عن الرجل الأبيض. كان هؤلاء الرجال خارجين عن القانون بكل ما تعنيه الكلمة، لذا بحثوا عن مأوى لهم في البرية يحميهم من الهندي، وقد تعلم الأبيض من أساليبهم كيف يضرم النيران كما تعلم فنون القتال أثناء المعارك التي غالباً ما يحرض عليها الهمجي الأبيض على أمل تحقيق المكاسب. لقد خدع البيض الأوائل الهندي ومع مرور السنوات، عاودت حكومة الولايات المتحدة العظمى

Twitter: @ketab_n

الكذب مرة تلو الأخرى حتى أيقن الهندي أنه لم يعد هناك مكان للحقيقة في قلب الرجل الأبيض وأنا لا ألومه على ذلك.

فالهندي رجل خيّر ولا أعتقد أنه منع الطعام أو المأوى عن أي زائر أو أساء معاملته. كما أنه لم يكن متعصباً قط، وكان يعطي كل ذي حق حقه حسب عقيدته الخاصة، والهندي يؤمن بأن معتقدات كل شخص ودينه تكون الأنسب له.

عندما ذهبنا إلى البيت لسماع قصة جديدة أخذت العاصفة في الهبوب، وغطت المروج بالثلوج ومع كل دقيقة تمر كان الجو يزداد برودة، وراحت تهب فوق رؤوسنا عاصفة ممطرة شديدة، ويبدو أن الرياح خلعت على مضيفنا حسن خلق ودماثة، فملأ الغليون وأعطاني إياه!

قال «نسر الحرب» بعدما انتهى من تدخين الغليون: «هذه الليلة سأحدثكم عن شجرة البتولا، ولحسن الحظ أن الرياح ستساعدكم على فهم القصة».

وقال: «وقعت أحداث هذه القصة في الصيف حين كان الطقس شديد الحرارة. والرياح العاصفة تهب أحياناً في فصل الصيف.

Twitter: @ketab_n

في أحد الأيام الحارة، حاول الشيخ أن ينام، بيد أن حرارة الجو أشعرته بالإعياء، فراح يجوب أرجاء إحدى التلال بحثاً عن نسمة هواء، دون جدوى، فتوجه إلى النهر علّه يشعر بشيء من الراحة هناك، لكنه لم يحدث. ارتحل الشيخ إلى منطقة الغابات حيث ترتفع الحرارة، رغم انتشار الظلال التي تكسو المكان، فزادت معاناته وشعر أنه عليك فعل أي شيء يخلصه من لظى الحر.

صاح الشيخ في الريح كي تهب فاستجابت، لكنها لم تأت بقوة في أول الأمر خشية أن يغضب الشيخ، فواصل صياحه:

«هبي أكثر وأكثر.. هبي أكثر من أي وقت مضى وخلصي العالم من هذا اللظى».

فاستجابت الريح لدعوة الشيخ وهبت أكثر وأكثر من أي وقت مضى.

صاح الشيخ: «انحني وانكسري يا شجرة التنوب». فانحنت شجرة التنوب وانكسرت. «انحني وانكسري يا شجرة الصنوبر». فانحنت شجرة الصنوبر وانكسرت. «انحني وانكسري يا شجرة السدر». فانحنت الشجرة وانكسرت.

Twitter: @ketab_n

«انحني وانكسري يا شجرة البتولا». فانحنت الشجرة لكنها لم تنكسر.. «لا يا سيدي!– لن أنكسر!».

«ماذا! أتعصين أمري يا شجرة البتولا؟ أنا آمرك بالانحناء والانكسار الآن». لكن شجرة البتولا لم تستطع سوى الانحناء قدر ما تستطيع لا أكثر. انحنت على الأرض.. انحنت لأقصى درجة لتنال رضا الشيخ ولم تنكسر.

صاح الشيخ: «هبي أكثر يا رياح.. هبي أكثر واكسري شجرة البتولا». حاولت الرياح أن تهب أكثر لكنها لم تستطع، ليزداد الأمر سوءاً ويستشيط الشيخ غضباً حتى وصل غضبه حد الجنون، وصاح في وجه شجرة البتولا: «آمرك أن تنكسري!».

ردت عليه شجرة البتولا وقالت: «لن أنكسر.. أنا لا تكسرني الرياح.. أنحني فقط ولا أنكسر أبداً».

صاح الشيخ غضباً: «إذن لن تنكسري؟» وهرع صوب شجرة البتولا حاملاً سكينه، وأمسك برأسها الذي كان ملامساً للأرض وراح يشق بسكينه لحاء الشجرة، ثم انقض بالسكين على جذع الشجرة، وانهال عليها بطعنات متواصلة.

Twitter: @ketab_n

«حسناً، هذا جزاء عصيانك أمري.. ولعلك تتأدبين بعد ما فعلته بك! ولتعلمي أنك على مر الزمن ستبدين هكذا؛ ستحمل شجرة البتولا على الدوام علامات عصيانها لصانعها. نعم، كل أشجار البتولا في العالم ستحمل العلامات نفسها إلى أبد الآبدين. والآن وبعد أن كنتم تتساءلون عن السبب وراء تلك العلامات الغريبة، التي تحملها شجرة البتولا! ها قد عرفتموها.

وهذا كل ما في الأمر».

Twitter: @ketab_n

أخطاء الشيخ

تواصلت العاصفة طوال الليل، وفي الصباح اكتست المروج بالثلوج حتى تلونت جميعها باللون الأبيض. وبدأ نور الصباح يشق أستار الظلام وخرج الصيادون في الصبح الباكر على عادتهم.

في ذلك اليوم، قدم الأطفال إلى مخيمي وقد سردت عليهم العديد من القصص التي تعجب الأطفال أصحاب البشرة البيضاء، فغرقوا في انتباه عميق وطرحوا أسئلة شتى، ولم يتركوني حتى عاد الصيادون.

في تلك الليلة حدثنا «نسر الحرب» عن أخطاء الشيخ فقال: «ارتكب الشيخ أخطاء كثيرة، لكنه عمل جاهداً حتى استطاع تصحيح كل أخطائه. وكنت قلت إن الشيخ ارتكب أخطاء كثيرة، ولم أخبركم بها، والآن سأحكي لكم بعض هذه الأخطاء.

Twitter: @ketab_n

من أخطاء الشيخ أنه جعل تيس الجبل يعيش في المروج، نعم أطلقه وسط المرج. ولم يستطع التيس الركض فوق المروج، فاندهش الشيخ وقال: ما الأمر؟ وقال للتيس، «تعال يا أيها التيس، وجرّه إلى أعالي الجبال، وأطلق سراحه هناك وجلس يراقبه. واندهش عندما رآه يركض على المنحدرات الوعرة بكل براعة. فأدرك ساعتها أن هذا هو الموطن الذي يعشقه التيس، فتركه هناك إلى الأبد وقال يحدث نفسه: «لن تنزل إلى المروج الدنيا بعد اليوم».

وبينما كان الشيخ يراقب ما يفعله التيس في الجبال الشاهقة، فإذا به يخلق أيلاً ويطلقه مع التيس، لكن الأيل تعثر وسقط بين الصخور ولم يتمكن مطلقاً من الركض، بل استطاع بالكاد أن يقف، فنادى الشيخ على الأيل ثم نادى على التيس وقال: «أعتقد أنك على ما يرام أما هذا الأيل فليس كذلك، وعلي أن آخذه إلى مكان آخر».

جر الشيخ الأيل إلى البراري ثم أطلق سراحه، وظل يراقبه للحظات فمكث الأيل غير بعيدٍ عن الشيخ خشية أن يعيده إلى الجبال مرة أخرى.

Twitter: @ketab_n

وقال الشيخ: «أعتقد أن هذا الأيل قد جاء إلى هذه الدنيا كي يعيش وسط المروج والبراري لذلك سأتركه هناك»، وتركه هناك، لذا يعيش الأيل بين المروج حتى يومنا هذا، فالمروج هي المكان المحبب له أكثر من أي مكان آخر».

لم تكن هذه القصة طويلة؛ لكن عندما تكبرون قليلا سأحكي لكم قصصاً مختلفة بعض الشيء، وأعتقد أن هذا ما لدي الآن».

Twitter: @ketab_n

كيف عثر الرجل على زوجة

لكل قبيلة قصصها الخاصة، ومعظمهم يتداول الموضوعات نفسها، التي تختلف فقط في التفاصيل.

فقد أيقن الهنود الحمر أن الشيخ كان يشوي القوارض بدلاً من السناجب، التي كانت تقطن الغابات في ذات الوقت، الذي خلق فيه النمر وجعله طويلاً ونحيلاً. أما قبيلتا «التشيبوا» و«كري» فأصرتا على أن السناجب هي التي كانت تطهى وتؤكل. وكان أهالي إحدى القبيلتين من سكان الغابات، وكان يعيش أهل القبيلة الأخرى في المروج، ومن هنا أتى الاختلاف.

هناك بعض القبائل، التي لا ترتدي ريش البوم، بل تتجنب التعامل مع هذا الطائر على الإطلاق، وهناك قبائل أخرى تستخدم ريشه دون غضاضة.

Twitter: @ketab_n

الهندي الذي يسكن الغابات ينتعل حذاء من الجلد اللين بينما أخوه الذي يسكن المروج يغطي نعل حذائه بالجلد الخام والسبب نبات الصبار والكمثرى على الأرجح!

باب بيت الهندي في الغابات يصل إلى الأرض، أما هندي المروج فيكسو بيته بالجلود لتحميه من عتو الريح.

وفي إحدى الليالي وداخل بيت «نسر الحرب»، سأل سائل: «لماذا لا يوجد للدب ذيل يا جد؟».

ضحك «نسر الحرب» وقال: «أهالينا لا يعرفون السبب لكننا نعتقد أنه خلق على هذه الهيئة في البداية، رغم أني سمعت ذات مرة من أهالي قبيلة أخرى أن الدب فقد ذيله وهو يصطاد.

وعن نفسي لا أعلم مدى صحة هذا القول، لكن قيل لي منذ أمد بعيد إن الدب كان يصطاد في الشتاء فسأله الثعلب: «هل أنت محظوظ؟» فأجاب الدب: لا، فأنا لا يمكنني أن أصطاد ولو سمكة».

فقال له الثعلب: «حسناً لو أنك وضعت ذيلك الطويل في هذا الثقب بين الجليد وجلست لا تحرك ساكناً، فسوف تتمكن من اقتناص سمكة».

Twitter: @ketab_n

امتثل الدب لكلام الثعلب، ووضع ذيله في الثقب الجليدي ولم يحرك ساكناً حتى يناديه الثعلب، الذي ترك الدب وذهب وتظاهر بأنه يصطاد بمحاذاة ضفة النهر. وكان الطقس شديد البرد حتى تجمد الماء المحيط بذيل الدب. لكن الدب ظل ساكناً ولم يتحرك في انتظار الثعلب، فتجمد ذيله وسط الجليد ولم يشعر، عندما أحسّ الثعلب أن الوقت قد حان ناداه قائلاً:

«أيها الدب.. هلم إليّ وأسرع.. هلم وأسرع.. هناك أرنب مختبئ داخل هذه الحفرة، وأريدك أن تساعدني على استخراجه»، حاول الدب النهوض ولم يتمكن.

تابع الثعلب نداءه: «تعال أيها الدب هناك أرنبان في الحفرة».

«حاول الدب جاهداً النهوض وانتفض بشدة ليخلص ذيله من وسط الجليد لكن ذيله انفصل عن جسده وفر الثعلب هارباً وهو يضحك على الدب».

أنا لا أصدق هذه القصة، لكني تذكرت أني سمعتها من رجل مسنّ من إحدى البلدان الواقعة في أقصى الشرق عندما أتى لزيارة والدي، ولا أستطيع الجزم بمصداقيتها.

Twitter: @ketab_n

كنت قد أخبرتكم كيف غير الشيخ العالم وبات التصارع على امتلاك المياه سبباً لنشوب الحروب فيه، وحكيت لكم كيف خُلق أول رجل وأول امرأة وهناك قصة أخرى تحكي كيف عثر الرجل الأول على زوجته، وسوف أحكي لكم هذه القصة.

عندما خلق الشيخ رجلاً يشبهه تركه يعيش بين الذئاب وانصرف. فواجه هذا الرجل أوقاتاً صعبة ولم يكن معه من الملبس ما يشعره بالدفء ويحميه من البرد أو زوجة تمد له يد العون، فخرج يبحث عن الشيخ.

«استغرق الرجل طويلاً حتى عثر على بيت الشيخ وما إن وصل حتى دخل وقال: «أيها الشيخ لقد خلقتني وتركتني بين الذئاب وأنا لا أكن لها أي حب، فهي لا تعطيني سوى الشحيح من اللحم ولا تشعل ناراً للدفء ولديها زوجات تأوي إليها».

قال الشيخ: «تسلق التل المرتفع وابدأ في دحرجة الصخور الضخمة باتجاه بيت إحدى إناث الذئاب واتخذها زوجة لك».

«لكنني لا أريد ذئبة. أعتقد أن عليك أن تعتني بي».

رد الشيخ: «حسناً، لقد كنت انتظر عودتك كي تراني،

Twitter: @ketab_n

وهيأت كل شيء لك. ما عليك سوى الذهاب نحو النهر حتى تصل إلى تل مرتفع وهناك تجد بيتاً، بعدها ستعرف ما عليك فعله. هيا اذهب!»

بدأ الرجل رحلته ذلك اليوم. وعندما حل الليل نصب خيمة وأخذ يأكل من شجرة التوت الكامنة بجوار النهر. وواصل رحلته في الصباح نحو النهر بحثاً عن التل المرتفع وعن البيت. وقُبيل الغروب رأى بيتاً جميلاً بجوار تل مرتفع فعرف أن فيه بغيته. فعبر النهر ودخل البيت. وعندما دخل البيت وجد امرأة تجلس بجوار المدفأة، ترتدي ملابس منسوجة من الصوف وتطهو بعض اللحم، أعجب برائحة اللحم، ولما رأته متجرداً من الثياب طردته إلى خارج البيت وأغلقت الباب وراءه.

بدا أن الأمر لم يسر على ما رام الرجل، ولكي ينتقم من المرأة تسلق التل المرتفع وبدأ في دحرجة الصخور الضخمة باتجاه بيتها، وواصل دحرجة الصخر حتى حطمت صخرة ضخمة بيت المرأة، فهرعت إلى خارج البيت وهي تصرخ.

Twitter: @ketab_n

شعر الرجل بالأسف عندما سمع صراخ المرأة وعويلها، فتوجه إلى التل حيث جلست المرأة على الأرض وقال لها: «آسف أيتها السيدة. جعلتك تبكين وتصرخين. لكني سأساعدك في إعادة بناء البيت وأبقى معك إن سمحت لي».

أثلجت كلمات الرجل صدر المرأة، فأرشدته لكيفية بناء البيت وأخذت تجمع بعض الحطب لإشعال النار وإعداد الطعام، وسمحت له بالدخول وتناول الطعام، وأخيراً صنعت له ملابس، وسارت الأمور بينهما بعدها على خير حال.

وهكذا عثر الرجل على زوجته!».

Twitter: @ketab_n

منامات

ما إن يبلغ الهندي الصغير مبلغ الرجال إلا وعليه أن يؤمّن لنفسه «قوته السحرية». فبعد أن يأخذ حماماً من العرق يختلي بنفسه في مكان ما، ويبقى فيه أربعة أيام بلياليها إذا لزم الأمر. ويجب أن يكون بمعزل عن كل ما حوله. في هذه الفترة لا يأكل مطلقاً ولا يشرب. ويمضي وقته في التوسل والتضرع إلى «السرّ الأعظم» كي يمنحه هبة العمر المديد. وحين ينام في هذه الحالة، ربما تداعب الأحلام منامه. فإذا لم يأته الحلم، خرج من هذه الحالة لفترة، ليعود بعد ذلك ويأخذ «حمام العرق»، ويحاول من جديد. أحياناً يقع اختيار الهندي لمكان نومه- كي تأتيه الأحلام- على المنحدرات الخطيرة أو الأماكن الوعرة.. لأن البيئة المروعة تؤثر في العقل حتى أثناء النوم وتخلع على الأحلام الحيوية.

وعندما يأتي الحلم، يكون به طائر أو حيوان يجيء معاونًا للحالم الذي يمر بمأزق. وعلى الحالم حين يستيقظ أن يجد طائراً

Twitter: @ketab_n

أو حيواناً مشابهاً للذي رآه في حلمه ويقتله، فإن كان طائراً كسا جلده بالطحالب وأبقاه إلى جواره إلى الأبد، ولو كان ما رآه في منامه حيواناً، عليه أن يأخذ جلده أو مخالبه أو أسنانه وألا يتركها طيلة حياته، إلا لو مُنح قوة سحرية أعظم في حلم آخر. وإذا حدث ذلك فإنه يستبدل القوة السحرية القديمة بالجديدة، وهذا قلما يحدث!

أحياناً يقوم الهندي بتزيين «قوته السحرية» بحُلى وهمية وغريبة وريش وفي أوقات أخرى تحفظ الهبة السحرية بعيداً عن مرأى كل من هو غير معني بالأمر وتبقى غير مزينة تماماً. فالقوة السحرية ضرورية وحتمية من دونها يخشى الهندي ظله.

في يوم من الأيام حدثني أحد القادة القدماء، الذي خاض العديد من المعارك عن حلمه العظيم، لكنه لم يخبرني باسم الطائر أو الحيوان الذي زاره في الحلم وأصبح «قوته السحرية».

قال لي إنه عندما كان صبياً يافعاً لا يتجاوز اثنا عشر عاماً، أخبره والده – شيخ القبيلة التي ينتمي إليها– أن الوقت قد حان لاستطلاع حلمه. وبعد «حمام العرق» تبع الصبي أباه في صمت لأن طالب الهبة يجب ألا يتكلم أو يصحب بشراً في الفترة بين أخذ الحمام واستطلاع الحلم. واصل الأب السير في

Twitter: @ketab_n

الغابة حالكة الظلمة وراءه الصبي المتجرد من ثيابه، حتى توقف الأب قرب تل شاهق عند سفح أشجار الصنوبر العملاقة.

أخبر الأب ابنه بالإشارة من دون أن يلفظ كلمة بأن يتسلق الشجرة وأن يدخل عش النسور الذي كان ماثلاً على قمة فروع الشجرة. وانصرف الرجل حتى يصل الصبي إلى العش ولا يكون على مقربة من مرشده البشري.

انصاع الصبي لأمر والده، وتسلق الشجرة، وجلس على عش النسور في قمة الشجرة. وأخبرني أنه كان يرى الأشياء على مرمى بصره من أعلى العش. كان يوماً دافئاً وكم تمنيت أن أحلم في تلك الليلة، لكن الرياح ظلت تهزّ رأس الشجرة، وفي حلكة الظلام، انتابني شعور شديد بالخوف لم أستطع معه أن آوي إلى النوم. وفي الليلة الرابعة، هبت عاصفة رعدية شديدة وأضاء البرق السماء وكانت الريح عاصفة، فبدأت شجرة الصنوبر العملاقة تئن وتهتز حتى أيقنت أنها ستسقط لا محالة. فقد هوت أشجار أخرى محدثة دوياً، وفي الظلام كانت هناك العديد من الأصوات المرعبة- يخيل إلي أني ما زلت أسمعها إلى الآن. بدأت تهطل الأمطار وازداد شعوري بالخوف. ولأنني لم أتناول أي طعام قط، أحسست بالهزال والإجهاد لدرجة كبيرة حتى نمت

Twitter: @ketab_n

في النهاية داخل العش وأتاني المنام. نعم رأيت حلماً رائعاً تحقق معظمه، وما تبقى منه سيتحقق لا محالة.

في البداية رأيت عشيرتي تخوض ثلاث حروب، بعدها رأيت جاموساً يختبئ داخل حفرة في عمق الأرض ثم تبعه الكثير من أهل عشيرتي. بعدها رأيت العالم كله يخوض حرباً، ورأيت العديد من الأعلام يحملها رجال بيض فوق أراضينا، كانت حرباً ضروساً، حتى أشعرني القتال ومظهر الدم بالإعياء أثناء الحلم، وأخيراً رأيت «شخصاً» قادماً- على ما يبدو- من بين السهول، وكانت الظلال تحيط به وهو مُقبلٌ عليّ. وظل هذا «الشخص» يدعوني إلى الذهاب إليه، فذهبت إليه في النهاية.

فسألني: «هل تعرف من أنا؟».

«لا.. يا هذا لا أعرفك، من أنت؟ ومن أي البلاد جئت؟».

«أيها الفتى لو أنصتَّ إلي ستصبح قائداً عظيماً وسيحبك شعبك. وإذا لم تنصت فسأنقلب عليك. أنا أدعى «العقل».

وبعد أن قال «الشخص» كلماته الأخيرة ضرب الأرض بعصا كان يحملها فأضرم النار في العشب. وطالما حاولت أن أعرف

Twitter: @ketab_n

ذلك «الشخص»، أعتقد أني أعرفه، وأعرف إلى أي البلاد ينتمي وبأي معسكر يرابط. فقد ساعدني طيلة عمرين، ولن أنقلب عليه يوماً».

كان ذلك حلم القائد العظيم والآن سأحدثكم باختصار عن «حمام العرق» وهو عبارة عن كوخ مصنوع من الصفصاف، يتم ثنيه وربط نهاياته في الأرض ليأخذ شكل قِدر مقلوبة وفيه حفرة صغيرة في الأرض. أما سقف الكوخ فيُغطى بالثياب ولحاء الشجر والتراب أو أي شيء يجعله محكماً. بعد ذلك تُشعل النار بالقرب من الكوخ وتُسخن فيها الحجارة، وعندما تكون الحجارة جاهزة يدخل الشخص إليه، ثم يقوم أحد المساعدين بدحرجة الأحجار الساخنة إلى الكوخ ومنه إلى الحفرة المستقرة بداخله، ثم يقوم برش المياه عليها. فلا يخطر ببال أحدٍ أن هناك حمام بخار في العالم كله أكثر حرارة من هذا الكوخ. وبعد أن يتشبع الشخص ببخار الكوخ الساخن ويغطى العرق جسده ينطلق مسرعاً ويلقي بنفسه في مياه النهر، سواء كان في الشتاء أو في الصيف. هذه الطقوس أودت بحياة آلاف الهنود عندما انتقل إليهم مرض الجدري من في الأيام الأوائل.

Twitter: @ketab_n

في تلك الليلة حكى «نسر الحرب» في كوخه حكاية غريبة، وسوف أحورها بعض الشيء، وهناك حكاية شبيهة بها في تاريخنا المقدس معروفة للجميع، وقال: «ذات مرة ومنذ زمن بعيد كان هناك رعدان يسبحان في الهواء إلى أن مرّا بقرية يسكنها أهلنا، وما إن وصلا إلى القرية حتى توقفا وشرعا في البحث.

كان في تلك القرية بيت جميل يكسوه الطلاء، ويسكنه رجل وامرأة عجوزان وامرأة جميلة في مقتبل العمر شعرها رائع الجمال. وكان الرعدان قادرين على مطالعة ما بداخل ذلك البيت، فقال أحدهما للآخر «فلنتزوج تلك المرأة الشابة ولا نخبرها مطلقا بحقيقة أمرنا!».

فاستحسن الثاني هذا الرأي وقال: «أنا مستعدة لذلك، فهي أجمل امرأة في القرية وقلبها نقي طاهر، وطبعها الصدق وصفتها الأمانة».

وبالفعل تزوج الرعدان المرأة، من دون أن يبوحا لها بحقيقة أمرهما، وسرعان ما صارت المرأة أما لصبيين. وعندما خرج الصبيان إلى الحياة، جلسا ذات مرة إلى أمهما وأخبراها مع بقية أهل القرية أنهما ليسا بشراً، وأنهما «رعدان» سيبلغان أشدهما في غاية السرعة.

Twitter: @ketab_n

وقال الصبيان: «حين يتعين علينا البقاء في الأرض لفترة ما، يجب أن نتزوج وننتظر حتى يكون لنا أربعة أبناء، ثم نرحل بعيداً كي نصبح رعداً من جديد».

وتحقق ما قالاه، فعندما تزوج كلاً منهما امرأة صالحة أنجب أربعة أبناء، فقالا لأهل القرية إن أوان الرحيل إلى الأبد قد حان.

فشعر أهالي قريتنا بحزن عميق لأنهما كانا رجلين صالحين تعلم أهلنا منهما الكثير من الأشياء الحسنة، التي لا ننساها على الإطلاق، لكن الجميع أيقنوا بأن الأمور يجب أن تسير إلى المصير المحتوم. وطوال فترة بقائهما معنا كان بإمكانهما إبراء المرضى والتنبؤ بما سيحدث على الأرض.

وفي ظهيرة أحد الأيام، ظهر الصبيان وقد ارتديا أجمل ما أوتيا من ثياب، وخرجا لإحدى المتنزهات في الغابة، يتبعهما أهل القرية جميعاً، فرآهما أهل القرية مستلقيين على الأرض في المتنزه، فمكث أهالي القرية بين الأشجار، التي نمت على حافة المتنزه، وظل أهل القرية يرقبونهما حتى تكونت السحب وتكاثرت الغيوم، وحجبت الصبيين عن الرؤية.

Twitter: @ketab_n

تعالت أصوات الرعد وهبت الريح وتساقطت الأشجار، وما فتئت السحب تنقشع والغيوم تتبدد حتى راح الصبيان إلى الأبد، ولم ينسهما أهل القرية قط. وكان جدي، الذي عاش بالأراضي القريبة من روكر من نسل أحد أبناء الرعدين!».

Twitter: @ketab_n

طيف الذكريات

كان المساء قد حل على الأرض القاحلة وتوارت الشمس الغارقة في حُمرتها وراء التلال البعيدة. هب نسيم الغروب، فتمايلت الأعشاب في الأودية وتزاوجت ذرات الغبار الصغيرة فوق الهضاب القاحلة. وفي الوادي العميق، شق جدولٌ صغير طريقه نحو نهر «ميسوري»، لتختلط مياهه المرة بمجرى النهر. هنا حيث تحول الطبيعة بين المرء وبين إرادته ورغباته، وتتوارى الذئبات لاصطياد فرائسها وإطعام صغارها، وقف شيخ هندي اشتعل رأسه شيباً بجوار ركام من عظام ثورين متناثرة، وقد ابيضت منهما الجماجم بمرور الوقت- فتحدث المحارب الشيخ إلى العظام في عزلته وكأنه يناجي صديق طفولته ورفيق الدرب: «أيها الثور! مرت سنون طوال على رحيلك وحال قومك لا يزال كحال عشيرتي التي تتضاءل سريعاً، لكنك لم تعلم ذلك، ولم تكن لتصدق ذلك، رغم أن الدلائل لا تكذب أبداً! لقد عرف والدي وجدي أهلك وعشيرتك، وعندما

Twitter: @ketab_n

ذهبت بعيداً في ليلة من الليالي، ظننا أنك اختبأت وأنك ستعود قريباً. لكن الثلوج توالت وتعاقبت أزمان منذ ذلك الحين، وأهلك ما زالوا بعيدين. يقول الشباب إن القطعان الكبيرة ذهبت إلى تلال الرمل وإن أبي ما زال لديه ما يكفيه من القوت. وأخبروني أن جشع الرجل الأبيض جعله يقتل جميع الجواميس التي عرفها أهلي، وأنه لم يكن يقتلهم بدافع توفير اللحم والطعام. وقالوا أيضاً إن القطعان الكبيرة، التي ارتعدت لها الأرض عندما كانت تركض فوقها، قتلت في سنوات قليلة على أيدي أناس لا حاجة لهم إليها ولا عوز. هل يكون ذلك صحيحاً؟ منذ أن خلق العالم وأهلنا يقتلون من بني جنسك. لكن القطعان بقيت ونمت وتكاثرت أعدادها فباتت تسد سيل الأنهار عند عبورها. لقد قتل أهلنا من بني جنسك ما يكفي لإطعامنا لكنهم لم يخوضوا حرباً ضدكم قط.. أخبرني، هل توارى أهلك عن الأنظار، أم أن الشباب يقولون الحقيقة، وأن أهلك رحلوا مع قومي إلى ظلال تل الرمال بلا عودة؟

«أيها الإنسان الأحمر لقد رحل أهلي. والشباب يقولون الحقيقة ورحلت قبيلتي بأكملها لترعى بين تلال الظل، وأبوك لا يزال عنده ما يكفي من اللحم ومن الطعام. فقد عانى بنو

Twitter: @ketab_n

جنسي من سهامه ورماحه، وعلى الرغم من ذلك فإن القطعان لا تزال تنمو وتتكاثر كما حدث هنا إلى أن أتى الرجل الأبيض وشن حربه ضدنا دونما سبب أو ضرورة. كنت آخر من مات ولذت بالفرار مع أخي إلى هذا البلد المحرّم كي نختبئ، لكن تبعنا صياد أبيض في أحد الأيام التي كانت الثلوج تكسو فيها وجه العالم، وجعل يقتفي آثارنا وأزهق بأسلحته الصاخبة أرواحنا التي رفرفت إلى جوار أرواح قطعان الظل. هل كان هذا من أجل اللحم؟ كلا لم يأخذ لحماً قط لكنه قطع الثياب، التي وهبنا إياها «نابا» لتشعرنا بالدفء وتركنا للذئاب، التي قدمت تحت جنح الليل، تتصارع وتتقاتل علينا فيما بينها، حتى إنها ما أبقت مني سوى العظام لترى شمس الصباح! وأخذت ذئاب البراري تسحب وتسلخ تلك العظام المرة تلو المرة، حتى اختفى آخر ما بها من لحوم وعضلات، وهبت الريح وصدح دويها. وانتهى كل شيء».

Twitter: @ketab_n

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والرقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

ISBN 978-9948-01-326-6

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE